

ذكروه. وهو على ما فيه من عدم اللياقة أخف وأسهل من قول الزمخشري في الكشف إنه كناية عن الجناية؛ لأن العفو رادف لها ومعناه أخطأت وبئسما فعلت .

ولا ندري بأي بنان كتب الزمخشري هذه العبارة السمجة التي تقشعر منها الجلود وتشمئز منها النفوس؟ وبأي وجه سمحت نفسه أن يجعلها تفسيراً لكتاب **الله** تعالى الذي من أهم مقاصده إعظام قدر النبي **صلّى الله عليه وآله** وإعلاء شأنه الرفيع؟ ومن ثم قال الإمام ناصر الدين أحمد بن المنير في انتصافه تعقيباً عليه: ليس له أن يفسر هذه الآية بهذا التفسير، وهو بين أحد أمرين: إما ألا يكون مراد **الله**، أو يكون ولكن قد أجل **الله** نبيه الكريم **صلّى الله عليه وآله** عن مخاطبته بصريح العتب، وتلطف به في الكناية عنه بما يلزم أن يقال عنده، فما باله لم يتأدب بآداب **الله** خصوصاً في حق المصطفى؟ فعلى كلا التقديرين هو ذاهل عما يجب في حقه **صلّى الله عليه وآله**. وفي الألوسي: وياسبحان **الله** من أين أخذ - عامله **الله** بعدله - ما عبر عنه ببئسما؟ والعفو لو سلم أنه مستلزم للخطأ فهو غير مستلزم لكونه من القبح واستتباع اللائمة بحيث يصحح هذه المرتبة من المشافهة بالسوء، ويسوغ إنشاء الاستقباح بكلمة بئسما المنبئة عن بلوغ القبح إلى رتبة يتعجب منها. ويرحم **الله** الإمام السبكي حيث امتنع عن إقرار الكشف لهذه السقطة التي هي من أقبح ما وقع للزمخشري في هذا الكتاب. وقد حاول بعض الأجلاء - على عادته - أن يوجه الآية بتوجيه لا يكون فيه مساس بالذات المحمدية المصونة، فقال بعد أن صحح القول باجتهاده **صلّى الله عليه وآله** وأنه دائماً مصيب فيه: وعتاب **الله** له إنما هو على فعل أمر مباح له، فهو من باب حسنات الأبرار سيئات المقربين.

وهو كما نرى، فالمناسب بل الصواب - إن شاء الله تعالى - أنه لا عتاب في الآية الكريمة أصلاً؛ إذ لم يصدر من النبي ﷺ ما يقتضيه، وذلك لأنه إنما أذن لهؤلاء المتخلفين بناء على ما قدموه له من الأعذار واعتلوا به من العلل، وأدلووا به من الأسباب التي تضطربهم إلى القعود، وهي وإن كانت مختلقة مكذوبة لا وجود لها في الواقع، لكن النبي ﷺ بمقتضى كونه المشرع الأكبر والقُدوة العظمى لمن يأتي بعده إلى يوم القيامة لا يسعه إلا قبولها والعمل بموجبها. أخرج البخاري في صحيحه عن أم سلمة رضي الله عنها أنه ﷺ قال: «إنكم تختصمون إليّ، ولعل بعضكم ألحن بحجته من بعض، فمن قضيت له بحق أخيه شيئاً فلا يأخذه، فإنما أقطع له قطعة من النار»، وعن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام وحسابهم على الله تعالى» رواه الشيخان. ولقد كان ﷺ يعلم أحوال المنافقين، وما انطوت عليه بواطنهم من الخبث والنفاق وتربص الدوائر به وبأصحابه الكرام، ومع ذلك كان يعاملهم معاملة المسلمين الخُلص، بل ربما أعطاهم من ماله وبشاشة وجهه أكثر من غيرهم. وقيل له مرة في قتلهم، فأبى، وقال: لئلا تقول العرب: إن محمداً يقتل أصحابه، فالنبي عليه الصلاة والسلام لم يتجاوز الصواب قيد شعرة ولم يفعل ما يستوجب العتاب رأساً، وما كان له إلا أن يأخذ الناس بما ظهر من أعمالهم وأحوالهم ويكل أمر سرائرهم إلى علام الغيوب. على أن الله تعالى قد أعطاه في هذا الأمر بخصوصه حرية

كاملة، وفوض إليه النظر فيه تفويضاً صريحاً ثقة بكماله، حيث قال:

﴿ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأُذِنَ لِمَن شِئْتَ مِنْهُمْ ﴾ (النور: ٦٢)، فكيف

يعطيه هذا التفويض الصريح ثم يعاتبه على أمر لم يقض فيه إلا بالمصلحة

والخير العام؟ كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ

عُدَّةً ﴾ أي: لأخذوا في أسبابه وتهيئوا له بإعداد الراحلة والزاد ﴿ وَلَكِن

كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ ﴾ أي: ولكن لم يريدوا الخروج ولم يستعدوا له، بل

صمموا على التخلف والقيود، وقالوا: استأذنوا محمداً، فإن أذن لكم

فاقعدوا، وإن لم يأذن لكم فاقعدوا، وإنما فعلوا ذلك؛ لأن الله تعالى كره

انبعاثهم ولم يرد خروجهم ﴿ فَشَبَّطَهُمْ ﴾ كسلَّهم وحبب إليهم القيود

وزينه في قلوبهم وهو معنى ﴿ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴾. ثم بين الحق

تعالى المفسد والأضرار التي كانت تترتب على خروجهم لو خرجوا

فقال: ﴿ لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا ﴾ تخديلاً للمؤمنين وتشيطاً

لهممهم ﴿ وَلَا وَضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ ﴾ أسرعوا بينكم بالنميمة

يطلبون إلقاء العداوات، ونفث الحزازات تفريقاً للكلمة وتمزيقاً للشمل

وكراهة في نصرة دين الله ﴿ وَفِيكُمْ سَمَاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴾

وبين أيضاً أن لهم في هذا الإفساد والكيد سوابق سيئة بقوله: ﴿ لَقَدْ ابْتَغُوا

الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ ﴾ أي: فكروا ودبروا وعملوا على كيدك

وإبطال دينك ﴿ حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ ﴾.

فبأي وجه يعاتب هذا النبي الكريم، وقد وافق رأيه المصلحة العامة؟

وكان هو مراد الله تعالى في الواقع ونفس الأمر من هؤلاء المنافقين

المفسدين أصحاب الصحائف السوداء في الدس والكيد وتقلب الأمور

له عليه الصلاة والسلام ولأنصاره. قال المفسرون: إنما عوتب صلى الله عليه وسلم؛ لأنه كان اللائق به وهو سيد أولي العزم أن ينتظر صدور الأمر له بذلك، وألا يسارع إلى الإذن، ويتفحص عن كنه معاذيرهم حتى يتجلى الأمر ويتبين الصادق من الكاذب. ونحن نقول: ما كان اللائق إلا فعله صلوات الله وسلامه عليه تشريعاً للأمة واتقاء لشر هؤلاء المنافقين الدساسين، وما كان عليه أن ينتظر صدور الإذن له في مثل ذلك بعد أن فوض الأمر إليه ووكل إلى مشيئته. بل نقول فوق ذلك: لو أنه عليه الصلاة والسلام أمرهم بالتخلف والقعود بدون استئذان منهم ولا انتحال أعذار مع علمه بحقيقة أمرهم ومقدار الضرر الذي يلحق الجيش من خروجهم معه لما كان عليه في ذلك لائمة ولا يوجه إليه عتاب. وهل يلام القائد الحازم على تطهير الجيش من عناصر الشر والفساد ودعاة الهزيمة والتردد؟ لا والله، لا مؤاخذه ولا عتاب في هذه الآية الشريفة، ولا صدر من النبي صلى الله عليه وسلم ما يستوجبه ويستدعيه، وإنما هي على حد قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ

اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قُلْ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّ إِنْ كُنْتَ قُلْتَ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (١١٦) مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (المائدة: ١١٦، ١١٧) والله تعالى يعلم أن عيسى عليه السلام لم يقل ذلك، وحاشاه أن يقوله، ولم يقصّر في دعوة قومه إلى عبادة الله وحده والإخلاص له في السر والإعلان، وإنما أراد فقط تبكيت أولئك الأغرار

المأفونين الذين ادعوا ألوهيته ونسبوه إلى ما ليس له بحق، وتقرّيعهم بين يديه، وبيان استحقاتهم للخزي والعذاب الشديد. وكذلك الحال هنا لم

يرد الله تعالى بقوله: ﴿لَمْ أَذَنْ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ

الكَاذِبِينَ﴾ معاتبه النبي ﷺ ولا إسناد شيء من الإهمال والتقصير إلى ذاته الكريمة، وإنما أراد ذم المخالفين المتخلفين وفضيحتهم بأنهم لم يصدقوا الرسول ﷺ فيما اعتلوا به من العلل وانتحلوه من الأعذار، وأنهم أصحاب كيد وإفساد، لا خير فيهم ولا مصلحة في خروجهم، وأنهم قد كانوا مصممين على التخلف مصرين على القعود بدليل أنهم لم يعدوا له العدة اللازمة، وقد كره الله انبعاثهم فبطهم وقيل: اقعدوا مع القاعدين. ولئن كان سيدنا عيسى عليه السلام قد دافع عن نفسه أمام هذه

المحكمة الإلهية وأجاب بقوله: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا

اللَّهُ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ (المائدة: ١١٧)... إلخ، فإن لسيدنا محمد ﷺ أن يجيب بقوله: إنما أذنت لهم يارب؛ لأنك خولتني هذا الحق، وفوضته إليّ ووكلته إلى مشيئتي، وأنت الذي لا يسلب ما أعطى ولا يسترد ما وهب.

ومع ذلك فما قضيت إلا المصلحة، ولا فعلت إلا الصواب. ولكن كفى الله تعالى حبيبه مثونة هذه الإجابة بما افتتح به هذا الخطاب من كلمة العفو المنبئة عن كمال التعظيم والتوقير. ولقد شهد الله عز وجل له بالكمال وسداد الرأي، ووصفه بعظم الخلق، وأوجب على المؤمنين طاعته وتحكيمه فيما شجر بينهم، وألا يجدوا في أنفسهم حرجاً من أحكامه وأقضيته، ويسلموا له تسليمًا حقيقياً ظاهراً وباطناً، ونفى أن يكون لمؤمن أو مؤمنة خيرة من أمرهم إذا قضى هو أمراً أو ارتأى رأياً، وجعله أولى بالمؤمنين من أنفسهم، ونهاهم أن يتقدموا بين يديه بشيء ما، أو يقطعوا

أمراً دونه، ما ذاك إلا ليقيم الأدلة ساطعة على كمال نزاهته وسداد رأيه وحسن تصرفه في الأمور كلها. ولكم دافع **الله** تعالى عنه في مواطن عديدة، وبرأه من نزغات الجنان وفلتات اللسان، ليشعرنا برفعة قدره وعظم منزلته، وأنه عروس المملكة الإلهية وأفضل الخلق على الإطلاق، الذي ما ضل وما غوى، وما ينطق عن الهوى. والمفسرون أنفسهم بعد أن قرروا أن الآية الكريمة قد نزلت له عتاباً **عليه السلام** على الإذن المذكور قد اعترفوا بأن المصلحة كانت في ذلك كما صرحت به الآيات المذكورة آنفاً، ولهذا تحيروا واضطربوا وأخذوا يبدون الأسئلة والأجوبة للتوفيق بين أطراف الموضوع. ولهذا سلكنا ما سلكناه، وقد استبان منه أن تصدير الآية الكريمة بالعفو ليس المقصود منه الكناية عن المؤاخذه والعتاب، بل المقصود منه المبالغة في تعظيمه **عليه السلام**، وإعلاء شأنه على ما هو الجاري في لسان العرب عند مخاطبة العظماء. يقولون: عفا **الله** عنك ما صنعت في أمري، ورضي **الله** تعالى عنك ما جوابك عن كلامي، ومن ذلك قول علي بن الجهم يخاطب المتوكل وقد أمر بنفيه:

عفا الله عنك ألا حرمة	تجود بفضلك يا ابن الندى
ألم تر عبداً عدا طوره	ومولى عفا ورشداً هدى
أقلني أقالك من لم يزل	يقيك ويصرف عنك الردى

فهو كما قال بعضهم بمنزلة أصلحك **الله** وأعزك. هذا هو اللائق بمنصب النبوة الأسمى وحرمة الأحمى. جعلنا **الله** من المتظللين بظله في الدارين.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُم أَزْوَاجًا
وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ *
يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ صدق الله العظيم

[من سورة الرعد: ٣٨، ٣٩]

ورد إلينا خطاب بامضاء حضرة المحترم الفاضل (شحاتة الشربيني
بتفتيش مشروعات الشرق - بالمنصورة) يتلمس منا تفسير هاتين الآيتين
على صفحات مجلة «الإسلام» الغراء رغبة في المنفعة العامة.

فتقول وبالله التوفيق:

الظاهر أن غرض السائل متعلق بالآية الثانية، وهي قوله تعالى:
﴿يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ فإننا الآن في شهر
شعبان، وهو الموسم الذي يحتدم فيه الجدل، ويكثر فيه القيل والقال حول
المحو والإثبات تجويزاً ومنعاً، وحول إحياء ليلة النصف من شهر شعبان
والدعاء بدعائها المشهور استحساناً وذمماً، ولكم سمعنا وقرأنا في
الصحف والمجلات الكثير من هذه المناقشات والمحاورات، التي يقام

سوقها في كل عام من غير موجب، ونقول من غير موجب؛ لأننا لا نرى في هذه المسائل ما يصلح محلاً للنزاع، أو يستدعي كل تلك التهويلات والتشنيعات الصارخة، والحال أن أمامنا من المنكرات الصريحة، والمفاسد الخطيرة، ما هو أولى بالعناية والاهتمام، ولكن ما الحيلة وقد ابتلانا الله تعالى بأناس لا همَّ لهم إلا التشويش على العامة، وتعكير صفوهم بالخوض في مثل هذه الأشياء التي ليست هي من الأصول المهمة، فلا فعلها يصادم قاعدة من القواعد الدينية، ولا تركها يهدم ركناً من أركانه الأساسية.

فمثلاً هذا الدعاء المشهور في ليلة النصف من شعبان ما وجه الاعتراض عليه؟ وأي غضاظة فيه وهو منقول بأسانيد صحيحة عن صحابين جليلين من أكابر أصحاب رسول الله ﷺ هما سيدنا عمر ابن الخطاب وسيدنا عبد الله بن مسعود رضي الله عنهما - وكفى بهما حجة - كيف وقد قال رسول الله ﷺ: «أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم»؟ وقال في شأن عمر وأبي بكر رضي الله عنهما: «اقتدوا بالذين من بعدي أبي بكر وعمر». وفي الحديث أن رسول الله ﷺ قال: «فعلیکم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين، عضوا عليها بالنواجذ» وعمر رضي الله عنهما ثاني الخلفاء الراشدين - كما هو معلوم - وعن مسروق أنه قال: «انتهى علم أصحاب رسول الله ﷺ إلى ستة: عمر وعلي وعبد الله بن مسعود وأبي بن كعب، وأبي الدرداء وزيد بن ثابت» رضي الله عنهم أجمعين .

فالاغراض على هذا الدعاء بعد ذلك مما لا قيمة له. ودعوى أن ذكر المحو والإثبات فيه يدل على نسبة الجهل أو البداء لله تعالى، دعوى لا دليل عليها، وبيان ذلك أن الله سبحانه وتعالى علم الأشياء كلها

إجمالاً وتفصيلاً، وكتب مقادير الخلق في اللوح المحفوظ، ما كان وما هو كائن وما سيكون إلى يوم القيامة على ما هي عليه من سعادة وشقاوة، وتوفيق وحرمان، وسعة رزق وتقتير فيه، وعزل وذل، وصحة ومرض... إلخ ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ (الحديد: ٢٢) وكتب المبرم من ذلك مبرماً، والمعلق معلقاً ﴿وَمَا يَعْمَرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقِصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ (فاطر: ١١).

والمبرم - وإن كان لا يقبل النقض بحال ولا بد من وقوعه - إلا أنه قد يحفه اللطف بسبب دعاء أو غيره، فيقع مقرونًا بالتخفيف في كيفه أو كميته، وعليه يحمل ما ورد.. اللهم إني لا أسألك رد القضاء، ولكن أسألك اللطف فيه: أي: لا أسألك رد القضاء المبرم؛ إذ لا يفيد في ذلك سؤال، ولا تنفع فيه شفاعة الشافعين، لاستحالة تخلفه، ولكن أسألك اللطف فيه بأن يقع مخففاً في كيفه أو كميته. ولا بأس أن يسمى هذا النوع مبرماً بالنسبة لأصل وقوعه، معلقاً بالنسبة لكيف أو كمية الوقوع، وجاء في الحديث أيضاً: «إن الدعاء ينفع مما نزل ومما لم ينزل» ونفعه فيما نزل وهو المبرم لا معنى له إلا حصول التخفيف فيه، وأما نفعه فيما لم ينزل هو المعلق فظاهر.

وجاء أيضاً: «إن البلاء لينزل فيتلقيه الدعاء، فما يزالان يتعالجان إلى يوم القيامة» وأخرج الحاكم وصححه عن ابن عباس رضي الله عنهما عنه صلوات الله عليه أنه قال: «لا ينفع الحذر من القدر، ولكن الله يمحو بالدعاء ما يشاء من القدر» ومعنى هذا أن الحذر لا ينفع من القدر المبرم المحتوم، أي: لا ينجي منه ولا

يدفع وقوعه، ولكن **الله** تعالى يمحو منه أي: من صفته أو كميته ما يشاء، ويحتمل أن يكون المعنى لا ينفع الحذر من القدر المبرم، وإنما يمحو **الله** تعالى بالدعاء المعلق فقط.. والمعلق أي: المحدود بوقت أو المشروط بشرط إذا جاء وقته المحدود وتوفر شرطه المعلوم أظهره **الله** تعالى في عالم الوجود سواء كان تعليقه على دعاء أو صدقة أو صلة رحم أو غير ذلك. أخرج ابن مردويه وابن عساكر عن علي - كرم **الله** تعالى وجهه - أنه سأل رسول **الله** صلى الله عليه وسلم عن قوله تعالى: ﴿يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ﴾ فقال له عليه الصلاة والسلام: «لأُقرنَّ عليك بتفسيرها، ولأُقرنَّ عين أمتي بعدي بتفسيرها: الصدقة على وجهها، وبر الوالدين واصطناع المعروف يحول الشقاوة سعادة، ويزيد في العمر، ويقي مصارع السوء» وضح أنه صلى الله عليه وسلم كان يقول في دعائه: «وقني شر ما قضيت» أي: اجعل بيني وبين ذلك وقاية تحول دون وصوله إليّ فلا يصيبني منه شيء.. ومما ينبغي أن يعلم أن التعليق إذا كان على سبب مخصوص، أو دعوة شخص معين، توقف حصول المعلق على ذلك بخصوصه. وأن هذا التعليق نفسه قد علمه **الله** تعالى وقضاه أزلاً وكتبه في اللوح المحفوظ ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ (الأنعام: ٥٩).

إذا علمت ذلك أيها القارئ الكريم، وتفهمته جيداً، علمت أن التغيير والتبديل من شأنه تعالى، وأن المحو والإثبات من مقتضيات حكمته، وتعلقات قدرته، في كل وقت وحين ﴿كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ (الرحمن: ٢٩) شئون يديها ولا يتديها: أي: يظهرها ويوجدتها ولا يأتنف

علمها وقضاءها؛ لأنها معلومة له تعالى ومقضية أزلاً ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾ (القصص: ٦٨) ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكُ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (آل عمران: ٢٦). ولولا المحو والإثبات لما كان هناك داع

لإرسال الرسل عليهم السلام، وإنزال الكتب، ولا كنا مطالبين بتخلية أنفسنا عن الرذائل، وتحليتها بالفضائل، ولا كنا مأمورين بالتعالج والتداوي من الأمراض والأوبئة، ولا كان للتضرع والدعاء وطلب العفو والعافية من الله تعالى فائدة. وكل هذه اللوازم باطلة بطلاناً لا شبهة فيه ولا خفاء، فلا استحالة ولا محذور في المحو والإثبات، بل هما مما علمه الله تعالى وسبق به قضاؤه وتقديره، كما أشار إلى ذلك سيدنا عمر رضي الله عنه في احتجاجه على من قال له - حينما رجع بالصحابة إلى المدينة ولم يدخل الشام تحاشياً للطاعون الذي كان به - أفراراً من القضاء يا أمير المؤمنين؟ فقال رضي الله عنه وما كان أسرع بديهته وأقوم حجته: نفر من القضاء إلى القضاء. يعني أن كلاً من الطاعون ورجوعنا بقضاء الله تعالى ضرورة أنه لا يقع في ملكه إلا ما أَرَادَهُ وقضاه، وإنما نفر من القضاء الأول وهو الطاعون امتثالاً لأمره تعالى بالفرار من مواقع البلاء.

ومن نفي المحو والإثبات عن علمه تعالى أو عن اللوح المحفوظ فإنما أراد نفي طرو^(١) التغيير على ذات العلم القديم، لكون التغيير من سمات الحدوث. أو إزالة نفس الكتابة من اللوح المحفوظ وإثبات بدلها؛ إذ المكتوب في اللوح المحفوظ إن كان مبرماً استحالت إزالته بالكلية، وإن

(١) طرو: بمعنى ابتداء.

كان محدوداً بوقت أو معلقاً على شرط، فإذا جاء الوقت وتوفر الشرط وظهر في الوجود غير الحالة الأولى المعلقة، فليس ثمة محو ولا إثبات أصلاً. ومثاله أن يكتب الإنسان على نفسه وثيقة بالتزام الإنفاق على شخص معين إلى وقت معين، فإذا جاء الوقت المذكور وأمسك عن الإنفاق عليه، فلا يقال إنه قد حصل في الوثيقة محو ولا إثبات، بل هذا هو نفس المكتوب فيها، ونظير ما قيل في اللوح المحفوظ يقال في صحف الملائكة؛ لأنها نسخة طبق الأصل منه، والقول بأنها قابلة للمحو دونه مما لا يظهر له وجه، وعلم **الله** تعالى ليس فيه تعليق بهذا المعنى، وإنما الذي فيه أحد الأمرين: المعلق عليه يحصل فيقع المعلق، أو لا يحصل فلا يقع، فعلى هذا إذا قال الداعي في ليلة النصف من شعبان أو غيرها: «اللهم إن كنت كتبتني عندك في أم الكتاب - أي: في اللوح المحفوظ - شقياً أو محروماً أو مطروداً أو مقترأ علي في الرزق، فامح اللهم بفضلك شقاوتي وحرمانني وطردي وإقتار رزقي، وأثبتني عندك في أم الكتاب سعيداً مرزوقاً موفقاً للخيرات». كان المعنى: اللهم إن كنت كتبتني عندك كتابة معلقة على سبب شقياً أو محروماً أو مطروداً... إلخ. فهأنذا واقف ببابك، ضارع إلى جنابك، طالب منك أن تمحو عني بفضلك، أي: أنجز ما سبق في علمك القديم، وسطرته في اللوح المحفوظ من محو، أي: إزالة وتبديل هذه الشقاوة، وذلك الحرمان المعلق، وأثبتني عندك في أم الكتاب سعيداً مرزوقاً، أي: أظهر سعادتني وسعة رزقي في عالم الوجود؛ لأدخل في رحمتك، وأتمتع بنعمتك، وأكون مع الذين أنعمت عليهم من النبين والصديقين والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقاً.

فطلب المحو والإثبات هنا مرجعه إلى طلب إزالة المكروه وإثبات ضده، أي: إبرازه وإيجاده، لا إزالة نفس الكتابة من اللوح المحفوظ وإثبات بدلها كما بينا.

وكل دعاء في الحقيقة يقتضي المحو والإثبات بالمعنى المذكور، فإن المريض مثلاً إذا قال: «اللهم اشفني» فمعنى ذلك أنه طلب من الله تعالى أن يزيل عنه المرض ويثبت، أي يوجد له الشفاء بدلاً عنه، وقد كان صلى الله عليه وسلم في أوقات الجذب يرفع يديه بالدعاء وهو فوق المنبر وما تكون في السماء قرعة وهي القطعة من الغيم، فما يضعها حتى يثور السحاب أمثال الجبال، فلا ينزل عن منبره حتى يتحادر المطر على لحيته صلى الله عليه وسلم، فإذا ما كثر المطر وخيف منه التلف، رفع يديه بالدعاء ثانياً، وقال: «اللهم حوالينا ولا علينا»، فما يشير بيده الشريفة إلى جهة السماء إلا انفرجت وتفتح عنها السحاب. ولا شك أن نزول المطر بدعوته صلى الله عليه وسلم الأولى، وارتفاعه بدعوته الثانية مما سبق به القضاء وقدره العزيز العليم في الأزل. وليس شيء من ذلك مؤتلفاً، ومثله يقال في عامة الأسباب والمسببات.

بقيت شبهة أخرى أوردها بعضهم على ما جاء في آخر هذا الدعاء وهو: إلهي بالتجلي الأعظم في ليلة النصف من شهر شعبان المعظم التي يفرق فيها كل أمر حكيم ويبرم؛ بل تلك هي ليلة القدر. لكن أجاب بعض الفضلاء عن هذه الشبهة بأن انتساخ الأمور من اللوح المحفوظ، أي: نقلها في صحف الملائكة يكون في ليلة النصف من شعبان والفراغ منها، واستلام كل ملك من الملائكة ما يختص به يقع في ليلة القدر. وأجيب بغير ذلك أيضاً. هذا ما يتعلق بموضوع الدعاء المذكور.

وأما أصل فضيلة هذه الليلة، ليلة النصف من شعبان وندب إحيائها بأنواع العبادة والذكر فلا معنى للتوقف فيه، أو القول بأنه من البدع المذمومة في الدين بعدما رواه البيهقي وقال: مرسل جيد عن عائشة رضي الله عنها قالت: قام رسول الله صلى الله عليه وسلم من الليل فصلى فأطال السجود حتى ظننت أنه قد قبض، فلما رأيت ذلك قمت حتى حركت إبهامه فتحرك؛ فرجعت فسمعتة يقول في سجوده: «أعوذ بعفوك من عقابك، وأعوذ برضاك من سخطك، وأعوذ بك منك إليك، لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك» قال: يا عائشة أو يا حميراء، أظننت أن النبي صلى الله عليه وسلم قد خاس بك أي: غدرك؟ قلت: لا **والله** يا رسول الله، ولكنني ظننت أنك قبضت لطول سجودك، فقال: أتدري (هكذا فيما وقفنا عليه، والموافق للقواعد العربية أتدري) أي ليلة هذه؟ قلت: **الله** ورسوله أعلم، قال: هذه ليلة النصف من شعبان يتجلى **الله** فيها على عباده، فيغفر للمستغفرين، ويرحم المسترحمين، ويؤخر أهل الحقد كما هم! وروى ابن ماجه عن عليّ - كرم **الله** وجهه - عنه صلى الله عليه وسلم: «إذا كان ليلة النصف من شعبان فقوموا ليلها، وصوموا يومها، فإن **الله** تبارك وتعالى ينزل فيها لغروب الشمس إلى السماء الدنيا فيقول: ألا من مستغفر فأغفر له؟ ألا من مسترزق فأرزقه؟ ألا من مبتلى فأعافيه؟ ألا كذا ألا كذا حتى يطلع الفجر». وهذا الحديث وإن كان ضعيفاً في اصطلاح المحدثين، إلا أنه يعمل به في فضائل الأعمال، كما هو مقرر في محله.

والأفضل في إحياء هذه الليلة أن يجتمع المسلمون عليه أولاً: لعموم النصوص الواردة في طلب الاجتماع على العبادة والذكر، والحث

على حضور مجالسه مع كون الوارد في هذه الليلة غير مقيد بالانفراد. وثانيًا: لما انتاب الناس اليوم من الكسل وفتور الهمم وقلة الرغبة في الخير بحيث إذا انفرد الواحد منهم عن إخوانه يفتر عن العبادة أو يتركها بالكلية، وقد قال الإمام البرزلي: كما تحدث للناس أقضية بقدر ما أحدثوا من الفجور. كذلك تحدث لهم مرغبات بقدر ما أحدثوا من الفتور. وقياس حال الناس اليوم على حال السلف الصالح قياس مع ألف فارق لا مع فارق واحد. وقد قالوا: يجب على العالم أن يكون عارفًا بزمانه. والمتأمل في حالنا اليوم يرى أن أغلب أعمالنا قد أصبح صورًا ظاهرة، وأشباحًا قائمة، وحركات تشبه حركات النائم لاستيلاء الغفلة على أكثر القلوب، وتراكم أدران الشهوات والذنوب، فما أشد احتياجنا إلى الاجتماع والمشاركة والتعاون، عسى أن تستيقظ هذه القلوب من غفلتها وتنبه من سكرتها. فإن المشي مع القافلة أدعى إلى النشاط، وأحث على السير، وأقرب إلى بلوغ المقصود. وإذا لم يعرف ذلك أولئك المتصدرون للنهي والإنكار على هذه الاجتماعات الخيرية وأمثالها فقد نقصتهم معرفته والتفطن له، وإن كانوا يعرفونه ولا يقيمون له وزنًا فالمصيبة أعظم والبلية أشد.

إن كنت لا تدري فتلك مصيبة وإن كنت تدري فالمصيبة أعظم
وأما تعليل كراهة الإحياء جماعة بسد الذريعة، وخشية اعتقاد
الفرضية فليس بشيء في نظرنا، فإن الفرائض الدينية قد تقررت وعرفها
الخاص والعام والصغير والكبير على السواء، وتميزت عن غيرها عند
الجميع حتى لم يعد خافيًا على أحد أن ما فرضه الله تعالى على عباده من

الصلوات خمس في اليوم واللييلة، وأن عدد الركعات في كل صلاة كذا، وأن الصوم المفروض هو صيام رمضان فقط. وأن أجهل الجهلاء يعرف الفرق بين صلاة المغرب في هذه اللييلة وبين ما سواها من النوافل. وكذلك الاحتجاج على بدعية هذه الاجتماع بأنه لم يكن في عصره صلى الله عليه وسلم غير مسلم؛ إذ ليس كل ما لم يكن في عصره صلى الله عليه وسلم يسمى بدعة يذم فاعليها، وقد عرف العلماء سنته صلى الله عليه وسلم بأنها ما صدر عنه من قول وفعل وتقرير. فمن عمل بقوله صلى الله عليه وسلم فهو عامل بالسنة لا بالبدعة، وإن لم يكن ذلك في عصره الشريف، وقد قال صلى الله عليه وسلم فيما سبق: فيغفر للمستغفرين ويرحم المسترحمين، وظاهره يشمل الاجتماع والانفراد، والتخصيص بحالة دون حالة تخصيص بلا مخصص. وقد أطلنا القول في هذه المقدمة لمسيس الحاجة إلى ذلك، فلنرجع إلى تفسير الآيتين الكريمتين بعون الله تعالى... قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُم أَزْوَاجًا وَذُرِيَّةً﴾ (الرعد: ٣٨).

لما تعلق إرادة الله تعالى بأن يرسل إلى الناس رسله عليهم الصلاة والسلام مبشرين ومنذرين، ويجعلهم وسائط بينه وبينهم، اقتضت حكمته العلية أن يجعلهم بيواطنهم ملكين ليتكفروا من مقابلة الملائكة، وتلقي الوحي عنهم، وبظواهرهم بشريين ليتكفروا من مخالطتهم والأخذ عنهم؛ إذ لو كانوا ملكين ظاهراً وباطناً لما أطاق البشر رؤيتهم والاجتماع بهم، ولو كانوا بشريين ظاهراً وباطناً كغيرهم لما أمكنهم ملاقات الملائكة والتلقي عنهم، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلًا﴾ (الأنعام: ٩) أي: لو جعلناه ملكاً لما جعلناه إلا بصفة البشر الذين يمكنهم مخاطبتهم ومخالطتهم. لكن

غاب ذلك عن جهلة المشركين فاستبعدوا أن يرسل الله تعالى إلى الخلق
 رسولاً من جنسهم فقالوا: ﴿أَبَشِّرْ يَهُدُونَنَا﴾ (التغابن: ٦) ، ﴿وَقَالُوا مَا
 لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ
 مَعَهُ نَذِيرًا﴾ (الفرقان: ٧) ظناً منهم أن البشرية تنافي الرسالية. وقد رد الله
 تعالى عليهم هذا الظن الفاسد بقوله آنفاً: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا﴾ (الأنعام: ٩)
 ... إلخ ومنهم من زعم أن الرسول حقيقة لابد أن يكون مشغلاً بالزهد
 وترك الدنيا بالكلية، فلا يتزوج ولا يقرب النساء، ولهذا عيروا النبي
 ﷺ بكثرة النساء، فرد الله تعالى عليهم ذلك بقوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا
 رَسُولًا مِنْ قَبْلِكَ﴾ (الرعد: ٣٨) يامحمد كانوا بشرًا مثلك يأكلون ويشربون
 ويمشون في الأسواق، وتطراً عليهم سائر الأعراض البشرية التي لا تنفر
 الناس عنهم ولا تخل بحكمة بعثتهم ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا﴾ يباشرونها
 ﴿وَذُرِّيَّةً﴾ أي: أولاداً؛ لأن ذلك لا ينافي منصب الرسالة، ولا يؤدي إلى
 نقص في مراتبهم العلية؛ بل فيه تحقيق لبشريتهم؛ لئلا يضل الناس باعتقاد
 الألوهية فيهم ومزيد استئناس بهم. وكثرة نسائه ﷺ لم تكن عن حظ
 نفساني، ولا غرض شهواني، بدليل أن ذلك لم يقع منه ﷺ وهو في
 ريعان شبابه، وفجر حياته، وقبل تحمله لأعباء الرسالة، وتصديه لمباراة
 خصومه ومكايدة أعدائه، وإنما وقع منه في أواخر عمره بأمر من الله تعالى
 وتحبيب منه فيه، كما أشار إلى ذلك بقوله ﷺ في ما رواه الحاكم
 والنسائي: «حب إلي من دنياكم: النساء، والطيب، وجعلت قرّة عيني في
 الصلاة» يعني أن هذا الحب لم يكن حباً طبيعياً، بدليل قوله: حب
 هكذا مبنيًا للمجهول، بل بتحبيب من الله تعالى لحكم ومصالح شتى،
 منها: أن تقتدي به الأمة في التزويج فيتناسلوا ويكثروا، ومنها: تقوية

روابط المحبة والولاء بينه ﷺ وبين كثير من قبائل العرب المتشعبة التي صاهرها، ومنها تيسير التبليغ، وبث الأحكام الشرعية، خصوصاً ما يتصل بالعلائق الزوجية، وقد كان الصحابة رضي الله عنهم كثيراً ما يسألون أزواجه ﷺ عن مثل هذه الأحكام، ومنها: الوقوف على استواء سره وعلنه ﷺ؛ لأنه لو كان منه في السر ما يخالف العلن، لوقفن عليه مع كثرتهم، ولأفشينه عملاً بمقتضى طباع النساء لاسيما الضرائر، ومنها غير ذلك مما يطول استقصاؤه. ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ﴾ (الرعد: ٣٨) أي: ما أمكن وما صح لرسول ﴿أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ﴾ (الرعد: ٣٨) أي: بإرادته تعالى وقدرته على حسب الحكم والمصالح المختلفة. وهذا رد على المشركين المتعنتين الذين كانوا يقترحون على النبي ﷺ آيات مخصوصة. فبين الله تعالى لهم أن الأمر كله مرجعه إليه، لا إلى الرسول، فإنه لا يمكنه بذاته الإتيان بشيء من تلك الآيات لكونه عبداً مريباً لا إيجاده ولا تأثير، وأن أمر الآيات دائر على المصالح والحكم لا اقتراح المقترحين ورغبات المتمنين ﴿وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ﴾ (المؤمنون: ٧١).

ويؤخذ من هذا أن المنكر المتعنت لا جواب له إلا الإعراض عنه، وعدم الالتفات إليه؛ إذ هو لا ينشد الحق لاتبعه، ولا يطلب الآية ليهتدي بها ﴿وَكَايْنٍ مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ (يوسف: ١٠٥)، ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوْ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (الأنفال: ٣٢)، ويؤخذ منه أيضاً بيان أمانة الرسل عليهم الصلاة والسلام وصدقهم فيما ادعوه؛ إذ لو كانوا غير صادقين لما سجلوا على أنفسهم هذا الاعتراف

القاضي بعبوديتهم وعدم حولهم وقوتهم، وأن ما يقع على أيديهم من الخوارق والتصرفات الكونية، فإنما هو بمشيئته تعالى وقدرته كما حكاه عن سيدنا عيسى عليه السلام بقوله: ﴿ **أَنِّي أَخْلَقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخُرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ** ﴾ (آل عمران: ٤٩) . وقد يمنح الله

تعالى طرفاً من ذلك لأوليائه المقربين بطريق التبعية والإرث لأنبيائهم كما يشير له حديث: العلماء ورثة الأنبياء. فيجري الله تعالى على أيديهم من الخوارق والتصرفات ما يشاء متى يشاء على الوجه الذي يشاء. وليت شعري ما معنى التوقف في ذلك بعدما صرحت به النصوص الشرعية، ودلت عليه الحوادث الواقعية؟ ونحن نعلم أن الله تعالى قد جعل في بعض الأفاعي من الخصوصية ما لو نظر إلى الإنسان لأهلكه، وبعضها إذا سمع الإنسان صوته يموت، وفي الحديث: «العين حق تدخل الرجل القبر، والجمل القدر». وهل قلنا: إن الولي هو الذي يوجد الكرامة بنفسه أو يتصرف فيها بذاته، حتى يتوجه علينا الإنكار؟ كلا والله. وإنما الذي قلناه ونقول: إن الله تعالى هو الذي يخلق الكرامة ويجريها على يد أوليائه العارفين، إكراماً لهم وإعلاماً بعلو منزلتهم ﴿ **لِكُلِّ أَجَلٍ** ﴾ (الرعد: ٣٨) أي: لكل وقت ومدة ﴿ **كِتَابٌ** ﴾ مكتوب فيه تحديده وتعيينه حسبما تقتضيه حكمته تعالى، وتتعلق به مشيئته. وهذا على ما قاله بعضهم رداً لاستعجال الكفار العذاب الذي كان يخوفهم به رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث كانوا يقولون: لو كان رسول الله صلى الله عليه وسلم حقاً لحصل ما أوعدنا به من نزول العذاب، فأجابهم الله تعالى بقوله: ﴿ **لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ** ﴾ فلا يتأخر عنه ولا يتقدم

عليه. وليس هذا من وظيفة النبي ﷺ ولا من اختصاصه، إن عليه إلا
 البلاغ كما قال عز شأنه: ﴿وَأِنْ مَا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعْدُهُمْ أَوْ نتَرَفَيْنَا
 فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ (الرعد: ٤٠).

وقيل: إنه رد لما أنكروه عليه ﷺ من نسخ بعض الأحكام الشرعية،
 فبين الله تعالى لهم أن ذلك دائر على حسب المصالح المختلفة باختلاف
 الأحوال والأوقات، كاختلاف العلاج حسب اختلاف أحوال المرضى بحسب
 الأوقات، ولهذا لما كانت المسائل الاعتقادية أدوية عامة لجميع البشر في جميع
 الأوقات، لم يقع فيها نسخ ولا تبديل؛ بل وقع ذلك في المسائل الفرعية
 الخاضعة لتطورات الزمن وأحوال المكلفين، كما قال تعالى: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا
 مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ (المائدة: ٤٨)، ومن هنا اختلفت طرق التربية عند أهل
 الطريق بحسب اختلاف المريدين، ولهذا شرطوا في الشيخ المرشد أن يكون ذا
 بصيرة نافذة، وخبرة تامة بتطورات النفوس وأحوالها ووجوه عللها، ليعالج
 كلاً بما يناسب حاله. وحظروا عليه أن يأخذ علاجه من الكتب بدون تصرف؛
 لأن الكتب في الحقيقة بمثابة «مخازن أدوية» ينتقي منها كل طبيب من أطباء
 القلوب ما يناسب أحوال مريديه ويستأصل شأفة أمراضهم؛ والشرط
 الأساسي الذي لا بد منه ولا اختلاف فيه، ألا تخرج هذه الأدوية عما رسمه
 الشارع الحكيم ﴿يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ (الرعد: ٣٩) أي: من الأحكام الشرعية
 بمعنى ينسخه ﴿وَيُثَبِّتُ﴾ ما يشاء أي: يبقيه من غير نسخ. ويحتمل: يمحو الله
 ما يشاء من أمور العباد ويثبت ما يشاء منها. ويحتمل: يمحو بالتوبة ما يشاء
 من الذنوب، ويثبت بدله حسنات كما قال تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ
 عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾ (الفرقان: ٧٠)، ويحتمل: يمحو

ما يشاء من خواطر قلوب المریدین، وهي الخواطر الرديئة يحوها بأنوار الذكر، ويثبت ما يشاء، وهي الخواطر الرحمانية. ويحتمل: **يحو الله** ما يشاء من أغيان الأغيار عن قلوب العارفين ويثبت بدلها أغيان الأنوار، والأولى أن يراد ما يعم ذلك كله بأن يكون هذا إشارة إلى تعلقات قدرته تعالى وكثرة تصرفاتها وعجائبها الزاخرة من الرفع والخفض، والإعزاز والإذلال، والإغناء والإفقار، والإحياء والإماتة... إلخ كما قال تعالى: ﴿**كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ**﴾

(الرحمن: ٢٩)، وهي شئون يبدىها ولا يتديها؛ لأنها معلومة له تعالى ومقضية أزلاً كما سبق، أي: يحو ما يشاء ويثبت في عالم الوجود ﴿**وَعِنْدَهُ أُمُّ**

الْكِتَابِ﴾ (الرعد: ٣٨) وهو اللوح المحفوظ، أحصي فيه كل شيء ما كان وما يكون إلى يوم القيامة، ففيه السبب والمسبب والتعليل والمعلق، كما أن فيه المبرم الذي لا يقبل نقضاً ولا حلاً، ويحتمل أن يكون المراد بأم الكتاب علم **الله** تعالى القديم كما رواه عبد الرزاق وابن جرير عن كعب **رضي الله عنه**. وإنما سمي علمه عز وجل إما لأن جميع ما في اللوح المحفوظ وما في صحف الملائكة تابع له وموافق لما فيه، وعلى هذا الاحتمال فهذه الجملة وهي قوله تعالى:

﴿**وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ**﴾ (الرعد: ٣٨) كالتعليل لما قبلها، يعني أنه سبحانه وتعالى

يحو ما يشاء ويثبت ما يشاء، ويدبر من شئون مملكته، ويغير من أحوال عباده على حسب ما تقتضيه المصالح والحكم ويتعلق به علمه القديم، فهو لم يفعل ذلك جزافاً ولا عبثاً؛ لأن أفعاله تعالى مصونة عن ذلك، وكل شيء عنده بمقدار ﴿**وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنْزِلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ**﴾ (الحجر: ٢١)

فهمنا **الله** تعالى أسرار كتابه، وحشرنا في زمرة أحبابه.. آمين.



حول دعاء نصف شعبان

١ - علم الله تعالى محيط بكل شيء

لا ريب في أن الله تعالى قد علم جميع الكائنات - من آجال وأعمال وأرزاق وغيرها - قبل تكونها وبعده، جملة وتفصيلاً، علماً لا يعترية خلل ولا خفاء، ولا يعزب عنه مثقال ذرة في العوالم كلها الملكية والملكوتية، الحسية والمعنوية. بحيث لا يكون من عباده عمل ولا قول ولا نفس ولا حركة ولا سكون إلا وقد قضاه وسبق به علمه القديم، ولا يظهر كائن عند ظهوره إلا في الوقت الذي علمه تعالى، وعلى الصفة التي علمها من غير تقديم ولا تأخير ولا زيادة ولا نقصان.

فإذا علم الله تعالى مثلاً أن فلاناً يموت في وقت كذا، أو يصل إليه نفع أو ضرر في وقت كذا، لا بد أن يموت في هذا الوقت المعلوم، ويصل إليه ذلك النفع أو الضرر في وقته المعلوم. وإن كان شيء من ذلك معلقاً على سبب من الأسباب: كأن يكون وصول النفع المذكور معلقاً على دعوة شخص معين في وقت معين علمه الله تعالى كما هو. وقولهم: لا تعليق في علم الله تعالى معناه أنه ليس في علم الله تعالى (إن فعل فلان كذا فله كذا)، وإنما الذي فيه (أن فلاناً يصل إليه كذا بسبب كذا). هكذا ينبغي أن يفهم، وإلا لانقلب العلم جهلاً، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.



٢- اللوح المحفوظ

هو جسم نوراني عظيم لا يعلم حقيقته إلا الله تعالى، خلقه عز وجل، وأمر القلم - وهو أيضاً جسم نوراني لا يعلم حقيقته إلا الله - أن يكتب فيه ما كان وما يكون إلى يوم القيامة. لا احتياج إلى ذلك بأن يستحضر بهما تعالى ما غاب عنه، أو يضبط ما يخاف نسيانه، بل لحكمة يعلمها تعالى، وإن قصرت عقولنا عن الوقوف عليها. ومما ينبغي أن يعلم أن المكتوب في اللوح المحفوظ ليس حروفاً كهذه الحروف المألوفة لنا؛ لأنه نور وقلمه نور والكتابة فيه نور. وقد يطلع الله تعالى بعض خواص عباده كالملائكة والأنبياء عليهم السلام، وبعض كبار الأولياء على شيء مما فيه ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾ (البقرة: ٢٥٥) وهم في ذلك متفاوتون بحسب تفاوتهم في المقامات. ومما يقرب لفهم كيفية اطلاع أولئك الخواص على ما في اللوح المحفوظ، ودرجات تفاوتهم فيه، ما يشاهده المار في شوارع القاهرة ليلاً (من الإعلانات) المعلقة أمام المحلات الكبرى التي يتنوع ظهور الكتابة فيها بواسطة تسليط النور الكهربائي، فتارة تظهر الكتابة فيها عربية وتارة إفريقية، فمن كان عنده إلمام باللغتين معاً قرأ المكتوب بهما في الحاليتين، ومن لا إلمام عنده إلا بإحدى اللغتين دون الأخرى، فلا يمكنه إلا أن يقرأ المكتوب باللغة التي هو ملّم بها فقط، مع أن كلا من الكتابتين ثابت وموجود قطعاً.

وإلى القراء بعض الأحاديث الواردة عنه صلى الله عليه وسلم في اللوح والقلم. روى مسلم في صحيحه عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «كتب الله مقادير الخلائق - أي: في اللوح المحفوظ؛ لأن أصل التقدير أزلي - قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة». وروى ابن العربي عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: «أول ما خلق الله تعالى القلم، ثم خلق النون وهي الدواة، وذلك قوله تعالى: ﴿ن وَالْقَلَمَ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ (القلم: ١)، ثم قال له: اكتب، فقال: ما أكتب؟ قال: اكتب ما كان وما هو كائن إلى يوم القيامة، ثم ختم القلم فلم يكتب ولم ينطق ولا ينطق إلى يوم القيامة» الحديث. وفي حديث ابن عباس رضي الله عنهما الذي رواه الترمذي قال صلى الله عليه وسلم: «رفعت الأقلام وجفت الصحف». قال العلماء: والمعنى: انتهت الكتابة بها في اللوح المحفوظ بما كان وما يكون إلى يوم القيامة. وفي جامع الترمذي: «إن أول ما خلق الله القلم، فقال: اكتب، قال: ما اكتب؟ قال: اكتب القدر ما كان وما يكون». وصح أيضاً: «إن الصحف جفت بما هو كائن إلى يوم القيامة». وظاهر هذه الأحاديث الشريفة بل صريحها أنه لا محو ولا إثبات في اللوح المحفوظ، بمعنى إزالة الكتابة وإثبات بدلها، وأن ما أثبتته الله تعالى في اللوح المحفوظ إنما هي الأمور الدنيوية فقط دون الآخروية، وبعضهم عمم، قيل: ولعله يلتزم الإجمال في الكتابة ضرورة تناهي اللوح؛ لكونه أحد الحوادث المتناهية، وعدم تناهي الأمور الآخروية والله تعالى أعلم بحقيقة الحال.



٣- واجبنا العمل بالشرع وعدم النظر إلى حقيقة المقدور

لما قضى الله تعالى في الأزل أن يكون في الناس سعداء وأشقياء وقدر لكل إنسان ما يتعلق به من أجل وعمل ورزق وصحة ومرض... إلخ، وجعل لكل أمر من هذه الأمور سبباً يترتب عليه ويقترن به في الوجود من غير أن يكون له فيه إيجاد ولا تأثير؛ بل التأثير لله وحده، وكنا لا نعرف شيئاً من ذلك كله؛ لأنها أمور مغيبة عنا لا يمكننا الوقوف عليها إلا بعد ظهورها في خارج الأعيان - أرسل الله تعالى إلينا رسله الكرام صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ناصحين هادين بما أنزله عليهم من الكتب التي هي تبيان لكل شيء، فبلغوا عليهم الصلاة والسلام الرسالة، وأدوا الأمانة كما هي، وقد جعل الله تعالى فينا استعداداً لفهم خطابهم، والقيام بأنواع التكاليف التي جاءوا بها ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ (إبراهيم: ٤) ، ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ (البقرة: ٢٨٦) فشرحوا لنا حقيقة السعادة، وبينوا لنا طريقة الوصول إليها، ووصفوا لنا كيفية الوقاية والعلاج من جميع الأمراض والمضار البدنية والروحية، وأوقفونا على ماهية الأسباب والمسببات وسائر ما نحتاج إليه في المعاش والمعاد، وهذا كل ما ناطه الله تعالى بهم عليهم السلام، فلا دخل لهم في إيصال الهداية إلى القلوب، ولا تأثير لهم في جلب محبوب أو دفع مكروه. ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هِدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ (البقرة: ٢٧٢) ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ (القصص: ٥٦) كما أنه ليس بلازم عقلاً أن يكون الله تعالى قد

أطلعهم على تلك الأمور المقضية قبل تكونها؛ لأن ذلك خارج عن وظيفتهم وغير داخل في اختصاصهم ﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعْ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ (الأنعام: ٥٠) أي: لا أعلم الغيب بذاتي وإنما أعلم بتعليم ربي. والثابت في النصوص أن الله تعالى قد أطلع رسله الكرام عليهم السلام على كثير من المغيبات، وأنه عز وجل لم يقبض نبينا محمداً ﷺ حتى أطلعه على كل ما يمكن للبشر الاطلاع عليه ما كان وما يكون إلى قيام الساعة. وفي الحديث: «رفعت إلى الدنيا فأنا أنظر إليها كما أنظر إلى كفي هذه». وجاء عنه ﷺ كما في صحيح البخاري أنه قال: «ما من شيء لم أكن أريته إلا أريته في مقامي هذا» الحديث. وقد صح عرض أعمالنا عليه ﷺ بعد وفاته، فإن وجد خيراً حمد الله تعالى، وإن وجد شراً استغفر لنا.

فالدلالة والإرشاد هما وظيفة الرسل عليهم الصلاة والسلام الأساسية، فمن عمل بإرشادتهم، وأصاخ إلى نصائحهم أناله الله تعالى ما يحب في الدنيا والآخرة، ودفع عنه ما يكره لكونه أتى البيوت من أبوابها، وفعل الأسباب التي شرعها الله تعالى، وجعلها في سابق علمه متقضيات لجلب المحاب ودفع المكاره، ومن هنا يمكننا أن نفهم الأحاديث الواردة في هذا الموضوع وهي كثيرة تقتصر منها على ما يأتي:

روى مسلم في صحيحه أن رسول الله ﷺ سئل: فيم العمل اليوم؟ أفيما جفت به الأقلام وجرت به المقادير أم فيما يستقبل؟ قال: «بل فيما جفت به الأقلام وجرت به المقادير». قالوا: ففيم العمل؟ قال: اعملوا فكل ميسر لما خلق له». وفي رواية: «ألا نمكت على كتابنا وندع العمل؟

فقال: من كان من أهل السعادة فسيصير إلى عمل أهل السعادة، ومن كان من أهل الشقاوة فسيصير إلى عمل أهل الشقاوة، اعملوا فكل ميسر، أما أهل السعادة فيسرون إلى عمل أهل السعادة، وأما أهل الشقاوة فييسرون إلى عمل أهل الشقاوة، ثم قرأ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى (٥) وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى (٦) فَسَنِيَرُهُ لِلْيُسْرَى (٧) وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى (٨) وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى (٩) فَسَنِيَرُهُ لِلْعُسْرَى﴾ (الليل: ٥-١٠).

والظاهر أنهم إنما سألوه صلوات الله عليه هذا السؤال ليزيل عنهم بدوائه الشافي، وحكمته البالغة، تلك الحيرة التي تخالج العقول في هذا المقام، وذلك لأنه مقتضى كون الله سبحانه وتعالى قضي الأشياء كلها أزلاً، وعلم أهل الجنة، وأهل النار، فلا يدخل الجنة داخل إلا وقد قضى الله تعالى له ذلك في سابق علمه، ولا يدخل النار داخل إلا كذلك، أنه لا فائدة في العمل ولا داعي إليه، ومقتضى كونه تعالى أرسل إلينا رسله وأنزل علينا كتبه، وخاطبنا بـ (افعلوا ولا تفعلوا) أن نكدح ونعمل ونقوم بما كلفنا به من الأمر والنهي، فأجابهم الرسول صلوات الله عليه بهذا الجواب الشافي الكافي، وأعلمهم أنه لا موجب لهذه الحيرة، ولا منافاة بين أن يعلم الله تعالى عدد أهل الجنة، وعدد أهل النار، ويبين أن يخاطبنا ويطالبنا بامتنال الأوامر واجتناب النواهي؛ لأن هذا الامتنال ذاته هو السبب الذي علّق الله تعالى عليه أزلاً دخول الجنة والنجاة من النار، وبين لهم أن كل إنسان مسهل ومهيأ إلى ما سبق في علمه تعالى وقضائه من مآله ومصيره، فمن كان في علمه تعالى من أهل الجنة فهو مسهل ومهيأ لعمل أهل الجنة، ومن كان في علمه تعالى من أهل النار، فهو مسهل ومهيأ لعمل أهل النار.

وقد أرشدهم عليه الصلاة والسلام حيث استشهد بقوله عز وجل:

﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى ﴾ (الليل: ٥) ... إلخ إلى أن هذا التسهيل قد بناه الله تعالى وعلقه على ميل العبد وسلوكه، فمن مال إلى الخير وسلك سبيله سيَّره الله تعالى للخير، ومن مال إلى الشر وسلك سبيله سيَّره الله تعالى إلى ضد ذلك.

وعن أم حبيبة زوجه رضي الله عنها أنها قالت: اللهم أمتعني بزوجي رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبأبي أبي سفيان، وبأخي معاوية، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «قد سألت الله لآجال مضروبة وأيام معدودة، وأرزاق مقسومة، لن يجعل شيئاً قبل حله، أو يؤخر شيئاً عن حله، ولو كنت سألت الله أن يعيدك من عذاب في النار، أو عذاب في القبر كان خيراً وأفضل» رواه مسلم في صحيحه. وقوله صلى الله عليه وسلم لأم حبيبة هنا: ولو كنت سألت الله... إلخ قريب الشبه بقوله عليه الصلاة والسلام للأعرابي الذي سأله عن الساعة: «ما أعددت لها؟» يعني أن سؤالك عن الساعة ووقت قيامها لا داعي إليه، ولا يعينك الآن بشيء، فإنها سواء قامت بعد ألف سنة، أو ألفين فإنك محاسب على أعمالك خاصة التي ستطوى صحيفتها بانقضاء أجلك وغروب شمس حياتك، وإنما الذي يهملك ويعينك أن تستعد لها بالعمل الصالح الذي يقيك شرها وأهوالها. فكذلك هنا فإن اشتغال أم حبيبة رضي الله عنها بما يعينها وبما هي مطالبة به من الاستعاذة من عذاب القبر والنار، أولى لها من الدعاء بزيادة الأجل التي لم تكلف بها.

ولولي الأمر أن يؤدب من في حيازته بما يراه أنسب لحاله، وأولى له في وقته أن يشتغل به وينصرف إليه، وإلا فكل شيء بقدر الله تعالى وقضائه حتى الوقاية من عذاب القبر والنار.

٤- المحو والإثبات

بيناً في مقال سابق معنى المحو والإثبات الواردين في دعاء ليلة النصف من شعبان، وفي قوله تعالى: ﴿يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ الآية، بما فيه الكفاية للمنصف. ونعود الآن فنقول: لاشك في أن المحو والإثبات بمعناهما الحقيقي في اللغة لا يمكن وجودهما في اللوح المحفوظ لما سبق من أنه نور وقلمه نور والكتابة فيه نور. وإياك أن تفهم أن المراد نور كهذا النور المؤلف في عالم الملك، كيف واللوح من عالم الملكوت المغاير تمام المغايرة لعالم الملك. وأما بمعنى بمطلق الإزالة والإثبات فإنما لم نقل بوجودهما في نفس اللوح المحفوظ وفي صحف الملائكة أيضاً، لظواهر الأحاديث المارة وغيرها الدالة على أن القلم جرى في اللوح بما كان وما يكون إلى يوم القيامة، وصحف الملائكة نسخ طبق الأصل منه كما سبق.

ولهذا وقفنا حيال الدعاء المذكور موقفاً وسطاً فلم نكره ولم نعرض عليه كما فعل غيرنا؛ لأنه مروي عن صحابيين جليلين من أصحاب رسول الله ﷺ هما: سيدنا عمر بن الخطاب وسيدنا عبد الله ابن مسعود رضي الله عنهما. وقد أقره وقبله السواد الأعظم منذ زمنهما إلى وقتنا هذا. ولقد سمعنا إقراره والدعاء به من كثير من أجداد الشيوخ وخلاصة الأمة المحمدية علماً وعملاً بحيث لا يمكن لإنسان - ما لم يكن جاهلاً يرمي القول جزافاً، ويكيل التهم للأبرياء كيلاً - الطعن فيهم أو

اتهمهم بالتسامح فيما لا يقبله الدين ويضر بعقائد المسلمين.. ولم نبقه على ظاهره المتبادر منه للأذهان عملاً بالنصوص الواردة. وهذا هو الذي تطمئن إليه النفس ويستريح إليه الخاطر.

وأما المحو والإثبات في الآية الكريمة ﴿يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ﴾ (الرعد: ٣٨) فأولى ما تحمل عليه كما قلناه سابقاً أن تكون تنبيهاً على كثرة تصرفات الحق جل وعلا، وتعلقات قدرته التنجيزية أي: يمحو الله ما يشاء ويثبت ما يشاء في عالم الوجود بأن يرفع ويخفض، ويعز ويذل، ويفقر ويغني، ويحيي ويميت إلى غير ذلك ﴿وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ (الرعد: ٣٨) وهو اللوح المحفوظ أحصى فيه كل شيء، وكتب فيه تلك المقادير كلها إلى يوم القيامة، وهذا هو الأنسب والأولى. أو علم الله تعالى القديم الذي أحاط بكل شيء جملة وتفصيلاً، فأحاط بجميع الواجبات والمستحيلات والجائزات، ما وجد منها وما لم يوجد. قال بعض المحققين: المعلومات خمسة أقسام. قسم لا يعلمه إلا الله سبحانه وتعالى، وقسم علمه - أي: أحاط به - اللوح المحفوظ والقلم، وقسم علمته الملائكة، وقسم علمه الأنبياء عليهم السلام، وقسم علمه الأولياء. وعلم الله تعالى محيط بجميعها ﴿وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ (الأنعام: ٨٠).



٥- الدعاء والقضاء

قد استبان لحضرات القراء مما قررناه الآن وفيما مضى أنه لا تنافي بين الدعاء والاعتراف بالقضاء، فإن الدعاء نفسه من القضاء، وقد أسلفنا عن رسول الله ﷺ الذي لا ينطق عن الهوى أن الله تعالى يحو بالدعاء من القدر ما يشاء وهو القدر المعلق كما سبق. وهذا أمر معقول لا بعد ولا غرابة فيه؛ فإن الله جلّت قدرته الذي جعل لكل شيء سبباً جعل الدعاء سبباً لدفع الكروب والفوز بالمطلوب متى توافرت شروطه وآدابه المفصلة في محلها. وفي الحديث: «واتق دعوة المظلوم؛ فإنه ليس بينها وبين الله حجاب» أي: أنها سبب تام لضرر الظالم والانتقام منه ولو بعد حين، كما في رواية الإمام أحمد: «ثلاثة لا ترد دعوتهم: الصائم حتى يفطر، والإمام العادل، ودعوة المظلوم يرفعها الله فوق الغمام، ويفتح لها أبواب السماء، ويقول الرب: وعزتي لأنصرنك ولو بعد حين». ولله تعالى عباد خصهم بإجابة الدعوة في الحال، وبعين المطلوب، أخبر عنهم رسول الله ﷺ بقوله كما في صحيح مسلم: «رُبَّ أشعث أغبر ذي طمرين لو أقسم على الله لأبره». وعلامة هؤلاء أن يكونوا كثيري السكوت، قليلي الدعاء، لا يتوجهون إلى الدعاء إلا إذا ألهمهم الله تعالى الإجابة، وألقى في خاطرهم تحقيق ما توجهوا إليه، فإنهم بنور بصائرهم، وصفاء أسرارهم، تكون قلوبهم كالمرآيا المصقولة يتجلى فيها مراد الحق تعالى فلا يختارون إلا ما يختاره عز وجل من وراثته من رسول الله ﷺ كما قال مادحه:

وخصك بالهدى في كل أمر فلست تشاء إلا ما يشاء

وعن سيدنا أبي الحسن الشاذلي رضي الله عنه: إذا أراد الله أمراً أمسك السنة أوليائه عن الدعاء ستراً لهم؛ لئلا يدعوا فلا يستجاب لهم فيفتضحوا.

ومما يستحق الذكر هنا أن إجابة الدعاء محققة متى توافرت شروطه وآدابه، لكن الإجابة قد تكون بعين المطلوب، وقد تكون بغيره. وفي الوقت الذي أراده الداعي، وفي غير الوقت الذي أراده. ومن كلام السادة الصوفية: وعدك بالإجابة كما شاء، وعلى الوجه الذي يشاء، لا كما تشاء أنت. ومن كلام أيضاً: ربما منعك فأعطاك، أي: ربما منعك ما طلبت لكونه يعلم أن المصلحة في منعه عنك الآن، فأعطاك بدله ما هو اللائق بك أو ادخر لك ثواباً تلقاه يوم القيامة. وذلك كما يمنع المريض من الطعام محافظة على صحته، أو كما يمنع الطفل من تناول ما يؤذيه رافة به وشفقة عليه. ثم إن ربط الأسباب بمسبباتها - ومنه تعليق تحقيق المقاصد على الدعاء - من الحكم الإلهية الجليلة. ولعل منها أن يظهر افتقار الخلق، ودوام فاقتهم إلى الله تعالى؛ لئلا يبطروا ويفتروا... وإلى هذا أشار رسول الله صلی الله علیه وسلم بقوله: «ما من عبد مسلم يدعو بدعاء إلا استجيب له، فإما أن يعجل له في الدنيا، وإما أن يؤخر له في الآخرة، وإما أن يكفر عنه من ذنوبه بقدر ما دعا، ما لم يدع بإثم أو قطيعة رحم». وهذه نبذة من أقوال العلماء في الدعاء: قال الخطابي: اختلفت مذاهب الناس في الدعاء، فقال قوم: لا معنى للدعاء ولا طائل له الآن؛ لأن الأقدار سابقة، والأقضية متقدمة، والدعاء لا يزيد فيها، وتركه لا ينقص شيئاً منها، فلا فائدة في الدعاء والمسألة. وقد قال النبي صلی الله علیه وسلم: «قد الله المقادير قبل أن يخلق الخلق بكذا وكذا عاماً» وروي عنه أنه قال: «جف القلم بما هو كائن».

وروي: «أربع قد فرغ منها: العمر والرزق، والخلق، والخلق» أو كما قال. وقال طائفة: الدعاء واجب، وهو يدفع البلاء، ويرد القضاء، واحتجوا

بما روي عن النبي ﷺ أنه قال: «لا يرد القضاء إلا الدعاء». وبما روي: «أن الدعاء والقضاء يلتقيان فيعتلجان ما بين السماء والأرض». وقال آخرون: الدعاء واجب إلا أنه لا يُستجاب منه إلا ما وافق القضاء. قال الخطابي: هذا المذهب هو الصحيح وهو قول أهل السنة والجماعة، وفيه: الجمع بين الأخبار المروية على اختلافها والتوفيق بينها، فأما من ذهب إلى إبطال الدعاء فمذهبه فاسد وذلك أن الله تعالى أمر بالدعاء وحض عليه فقال: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ (غافر: ٦٠)، وقال: ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً﴾ (الأعراف: ٢٠٥)، وقال: ﴿قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ﴾ (الفرقان: ٧٧) في أي ذوات عدد من القرآن، فمن أبطل الدعاء فقد أنكر القرآن ورده، ولا خفاء في فساد قله وسقوط مذهبه اهـ. ويمكن حمل قول من قال: إن الدعاء يدفع البلاء ويرد القضاء على معنى أنه يرد القضاء المعلق على الدعاء، فلا يكون بينه وبين المذهب الصحيح مخالفة. وصفوة القول: إن الأمر كما قال الإمام الغزالي: فإن قيل: فما فائدة الدعاء مع القضاء لا مرد له؟ فاعلم أن من جملة القضاء رد البلاء بالدعاء، فالدعاء سبب لرد البلاء ووجود الرحمة، كما أن الترس سبب لدفع السلاح والماء سبب لخروج النبات من الأرض، فكما أن الترس يدفع السهم فيتدافعان، فكذلك الدعاء والبلاء، وليس من شرط الاعتراف بالقضاء ألا يحمل السلاح، وقد قال تعالى: ﴿وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ﴾ (النساء: ١٠٢)، فقدّر الله الأمر وقدّر سببه اهـ. بل نقول: إن من شرط الاعتراف بالقضاء مباشرة الأسباب التي قضاها الله تعالى وجعلها مقتضيات لمسيباتها وأمرنا بمباشرتها في كتابه وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ
 بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتَسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ
 تَذَكَّرُونَ (٢٧) فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ
 وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ
 (٢٨) لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَكُمْ
 وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ (٢٩) قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ
 أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ
 (٣٠) وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا
 يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا
 يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ
 أَبْنَاءَ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ
 أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ
 الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا
 يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ
 (٣١) وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ
 يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٣٢) وَلِيَسْتَعْفِفَ

الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ
 الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَآتُوهُمْ
 مِنْ مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ وَلَا تُكْرِهُوا فَتِياتَكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ
 تَحَصُّنًا لَتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَنْ يُكْرِهِنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ
 إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٣٣) وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُبِينَاتٍ وَمَثَلًا مِنَ
 الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٤﴾ صدق الله العظيم

[من سورة النور: ٢٧ - ٣٤]

قبل أن نشرع في تفسير هذه الآيات الكريمات، نستوقف القلم برهة
 نستعرض فيها حال المسلمين اليوم وما وصلوا إليه من تدهور وانحطاط،
 ونذرف دمعة الأسى والأسف على ما فشا بينهم من التهاون بأحكام الله
 تعالى والإعراض عن تدبر آياته الحكيمة، والعمل بما تضمنته من آداب
 عالية وأخلاق كريمة، اغتراراً بالمدينة الكاذبة، وتمسكاً بالتقاليد الأجنبية
 الشاذة حتى أصبح الغربيون عندهم كل شيء، بهم يقتدون، وبهديهم
 يتمسكون. ومن الفضيحة والعار أنهم ما قلدوهم في النافع من أعمالهم
 كحسن سياستهم، والغيرة على أوطانهم، وترقية الصنائع والفنون، وبث
 روح التعاون فيما بينهم، وإنما قلدوهم في الخلاعة والمجون، والاستخفاف
 بأوامر الدين الحنيف، قلدوهم في الإعلان بالمعاصي والمجاهرة بالمعتقدات
 الزائفة، قلدوهم في معاورة الحان ومغازلة الحسان، وغشيان دور الملاهي،
 واختلاط النساء بالرجال سافرات متبرجات، فياللخية والعار.. ويا حسرة

على المسلمين، ألم يَأْنْ لهم أن يرجعوا إلى التمسك بدينهم، والاهتداء
 بكتاب ربهم، والعمل بسنة نبيهم ﷺ؟ ألم يَأْنْ لهم أن يستفيقوا من
 غفلتهم، ويتذكروا سالف مجدهم، وتراث آبائهم فيعملوا على بنيانه،
 وإعادة ما سقط من أركانه؟ ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ
 اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ
 عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ (الحديد: ١٦) .

هذه آداب الإسلام وتعاليمه الرشيدة، هلموا أبها المسلمون
 فاعتصموا بحبلها، وتشبثوا بأهدابها قبل أن يُسقط في أيديكم، وتقعوا في
 قرع السن حيث لا ينفع الندم ولا يفيد. ها هو الحق قد اتضح، والباطل
 افتضح فالبدار البدار. إنما يزين لكم الشيطان تقليد الأجانب والتمسك
 بعباداتهم؛ لأنه يردكم ويضلكم ضلالاً بعيداً.

هذا، وقد اشتملت هذه الآيات على جملة من التشريعات الحكيمة
 والتعاليم القويمة والآداب الراقية وهي:

١- منع الإنسان من دخوله غير بيته إلا بعد الاستئذان سواء كان رب
 البيت حاضراً أو غائباً، تباعداً عن الريب والشكوك الموجبة لسوء
 الظن وتوتر العلاقات، ومحافظة على صيانة الحرم وستر العورات،
 ورغبة في تأكيد صلوات المحبة والإخاء بين الجميع .

٢- الأمر بغض البصر وحفظ الفرج عن كل ما لا يحل، طلباً للعفة
 وحرصاً على عدم اختلاط الأنساب.

٣- منع النساء عن التبرج وإبداء زينتھن للرجال؛ تحقيقاً لهذا الغرض
 نفسه .

٤- الأمر بتزويج الأيامي، وهم الخالون من الأزواج ذكورا كانوا أو إناثا؛ تفاديا لخطر العزوبة ومضارها الشخصية والاجتماعية، فإن النكاح أغض للبصر وأحصن للفرج، وهو السبيل الوحيد الموصل لوجود النسل وحفظ النوع الإنساني. وقد تنبّهت بعض الأمم الأجنبية لعظم الفوائد المترتبة على هذا المبدأ القويم، فقامت تعمل على نشره وتعميمه بين أفرادها وطوائفها.

٥- أمر السادة بالإحسان إلى ممالئهم، وإيثار الرحمة في معاملتهم بتزويج الصالحين منهم، وكتابة من عندهم أهلية الكتابة منهم، وإيتائهم من المال ما يستعينون به على فك رقابهم وتحريرها من رق العبودية. وهذا بلا شك خير ما يمكن عمله لتخفيف إصر الاسترقاق، وتنظيم ما بين السادة والعبيد من علاقات.

٦- التشنيع على بعض فضائح الجاهلية، وعاداتهم الذميمة من إكراه فتياتهم على البغاء طلبا لعرض الحياة الدنيا.

٧- توجيه النظر إلى التدبر في آيات **الله** والتفكير في أمثاله العجيبة للاتعاظ بها والعمل بموجبها حتى ندخل في سلك المتقين ونحصل على سعادة الدارين.

وستكلم عليها إن شاء **الله** تعالى بنوع من التفصيل معرضين عن استقصاء كل ما قيل، أو ما يمكن أن يُقال في هذا الموضوع، **والله** تعالى ولي الهداية والتوفيق، فنقول:

قال **الله** تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي: صدّقوا **بالله** تعالى وبصفاته الكمالية، وأنه الرقيب العليم بأحوال الخلق، فلا تخفى عليه

خافية، الحكيم الذي لم يشرع لهم إلا ما فيه مصلحتهم وسعادتهم في معاشهم ومعادهم، وإنما خص المؤمنين بالخطاب؛ لأنهم المتفعلون به العاملون بمقتضاه. والتعبير بـ (يا) الموضوع للدلالة على بُعد المنادي للإشعار برفعة قدرهم وبُعد منزلتهم، ولذلك استحقوا أن يعتني الحق تعالى بشأنهم، ويشرفهم بخطابه وسماع أوامره ونواهيه ﴿ **لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم** ﴾ أي: غير البيوت المعدة لسكنكم، هذا هو المراد، وعليه فيجب على مالك ذات الدار إذا دخل على مكترها أن يستأذن ويسلم قبل الدخول؛ لأنها غير بيته بهذا المعنى، ويدخل في الغير بيت ابن الإنسان أو بيت أمه أو أبيه. فقد قال رجل للنبي ﷺ: أأستأذن على أمي؟ قال: «نعم»، قال: ليس لها خادم غيري، أأستأذن عليها كلما دخلت؟ قال ﷺ: «أتحب أن تراها عريانة؟» قال: لا، قال: «فاستأذن عليها». ﴿ **حتى تستأنسوا** ﴾ أي: تستأذنوا من أهلها. وإنما سمي الاستئذان استئناساً؛ لأن المستأذن مستوحش، فإذا أذن له فقد اطمأنت نفسه وزال عنه الاستيحاش. ويؤخذ من ذلك أن المعول عليه إذن خاص وهو ما قامت القرينة على أنه صادر عن طيب خاطر ورضا نفس. ويكون الاستئذان بكل ما يدل عليه عرفاً كقرع الباب أو التنحنح، وما باب أولى صريح الاستئذان، ولا يستقبل المستأذن الباب بوجهه عند الاستئذان؛ بل يقف بجانبه الأيمن أو الأيسر؛ لئلا يقع بصره على ما في داخل البيت من متاع أو حريم، وإذا طلب منه التعيين فليعين نفسه بما يميزه من اسم أو كنية، ولا يكتفي بقوله: (أنا) مثلاً لعدم إفادته، وقد روي عن جابر بن عبد الله أنه قال: «استأذنت على رسول الله ﷺ فقال: «من هذا؟»

فقلت: أنا، فقال النبي ﷺ: «أنا، أنا» كأنه كره ذلك. ﴿وَتَسَلَّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا﴾ السلام الشرعي بأن تقولوا: السلام عليكم. وظاهر الآية الشريفة أن الاستئذان مقدم على السلام، وورد في السنة التصريح بخلاف ذلك، فقد روى أبو داود بإسناد صحيح عن ربعي بن حراش رضي الله عنه قال: حدثنا رجل من بني عامر استأذن على النبي ﷺ وهو في بيت فقال: «أألج؟» أي: أأدخل؟ فقال رسول الله ﷺ لخادمه: «اخرج إلى هذا، فعلمه الاستئذان، فقل له: قل: السلام عليكم، أأدخل؟» فسمعه الرجل، فقال: السلام عليكم، أأدخل؟ فأذن له النبي ﷺ فدخل. وقد استأذن عمر بن الخطاب رضي الله عنه على النبي ﷺ وهو في مشربة فقال: السلام عليك يا رسول الله، السلام عليكم، أيدخل عمر؟ وجمع بعض المحققين بأن مرید الدخول إذا وقع بصره على أحد في البيت قدم السلام، ثم يستأذن، وإلا قدم الاستئذان ثم يسلم. والظاهر أن السلام ليس بشرط في تحقق الاستئذان. والظاهر أن السلام ليس بشرط في تحقق الاستئذان، بل هو سنة مستقلة كما هو حكمه العام ﴿ذَلِكُمْ﴾ أي: الاستئذان والسلام قبل الدخول ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ من الدخول بغير استئذان ومن التحية بغير تحية الإسلام، كما كان يفعله الجاهلية، حيث كانوا يقولون في تحيتهم: حيتم صباحاً، حيتم مساءً، وكان الرجل منهم يتهم على بيت غيره، وربما أصاب الرجل مع امرأته في لحاف واحد، فأبدلنا الإسلام خيراً من تحيتهم، وأدبنا بما لم يكن عندهم من الآداب. وفي قوله عز وجل: ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ إشارة إلى أن فائدة الاستئذان والسلام المذكورين راجعة إلينا نحن لما يترتب على ذلك من صيانة الأعراض وستر العورات، وإحكام أواصر

المحبة والولاء بين أفراد الأمة التي هي كالجسد الواحد ﴿لَعَلَّكُمْ
 تَذَكَّرُونَ﴾ أي: شرع لكم الاستئذان والسلام كغيرها من آداب الإسلام
 كي تتذكروا فضل الله عليكم وعنايته بكم حيث أكرمكم بخطابه،
 وشرفكم بنزول كتابه، وأرسل إليكم نبيه محمداً ﷺ فأخرجكم به من
 الظلمات إلى النور، ونقلكم من الهمجية والوحشية وعادات الجاهلية إلى
 الملة السمحة والمدنية الصحيحة، وعلمكم ما لم تكونوا تعلمون من
 الشرائع والأحكام والقوانين التي نظم بها صلاتكم وعلائقكم، وقوم بها
 شئونكم جماعات وأفراداً، والمراد: لعلكم تتذكرون ذلك وتشكرون
 بالعمل بموجبه ﴿فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا﴾ يصلح للإذن بأن لم يكن فيها أحد
 أصلاً، أو كان فيها أحد لكن لا يصلح للإذن ﴿فَلَا تَدْخُلُوهَا﴾؛ لعله
 يكون فيها من المتاع والأثاث ما لا يحب صاحبه أن يطلع عليه غيره،
 ويفهم من هذا أن وجوب الاستئذان ليس لخشية النظر إلى العورات
 فحسب، بل لتقرير حرمة البيوت وكف النظر عن كل ما تحتويه من آنية
 ومتاع بدون إذن صاحبه. ومن الأسف أن يتهاون الناس في هذا الأمر
 الخطير الذي اعتنى به الشارع الحكيم إلى حد الإهمال تقريباً، ومن ثم
 دبَّ فيهم الشقاق، وساد سوء الظن، وامتألت الصدور بالضغائن
 والأحقاد ولا يزالون على هذا الحال حتى يرجعوا إلى ربهم، ويعودوا إلى
 سنة نبيهم ﴿حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾ أي: حتى يجيئكم الإذن في الدخول ممن
 يوثق به ولو كان خادماً أو صبيّاً مميّزاً ﴿وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ ارْجِعُوا﴾ أي: وإن
 استأذنتم، وقيل: لكم ارْجِعُوا أو ما في معنى ذلك نحو صاحب المنزل
 مشغول أو غائب أو ليس عنده وقت... إلخ ﴿فَارْجِعُوا﴾ ولا تحلوا في

طلب الدخول وإخراج أهل المنزل، ولو لم يبدو عذراً فإن من الأعذار ما لا يمكن التصريح به. وكذا إذا استأذنتم ثلاث مرات فلم يؤذن لكم كما في حديث أبي موسى رضي الله عنه عند الشيخين قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «الاستئذان ثلاث مرات، فإن أذن لك وإلا فارجع». وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: كنت في مجلس من مجالس الأنصار؛ إذ جاء أبو موسى كأنه مذعور فقال: استأذنت على عمر ثلاثاً فلم يؤذن لي فرجعت. فقال: ما منعك؟ قلت: استأذنت ثلاثاً فلم يؤذن لي فرجعت، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إذا استأذن أحدكم ثلاثاً فلم يؤذن له فليرجع». فقال - أي: عمر رضي الله عنه - : **والله** لنقيمن عليك البينة». وجاء أنه قال له: لأوجعن ظهرك وبطنك أو لتأتين بالبينة، أمنكم أحد سمعه من النبي صلى الله عليه وسلم؟ هذا من كلام أبي موسى، فقال أبي بن كعب: **والله** لا يقدم معك إلا أصغر القوم، فقال أبو سعيد: فكنت أصغر القوم، فقامت معه فأخبرت عمر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال ذلك. وتوقف عمر رضي الله عنه في خبر أبي موسى المذكور، ليس لأن خبر الواحد لا يعمل به - كما زعمه بعضهم - بل لأنه أثبت أمراً زائداً على الكتاب، فخشي عمر رضي الله عنه أن يكون أبو موسى نسي أو أخطأ وأراد التوثق فقط ولم يتهمه بتعمد الكذب، فلما شهد معه أبو سعيد زال ذلك من صدر عمر. هذا هو التعليل الوجيه، وإلا فالخبر خبر آحاد حتى بعد شهادة أبي سعيد؛ لأن رواية الاثنين من قسم الآحاد كما لا يخفى. ﴿هُوَ أَزْكَى لَكُمْ﴾ أي: الرجوع وعدم القعود والانتظار على الباب أظهر لكم وأبعد عن التهم، وأنفى للردائل والدناءات ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ أي: بجميع أعمالكم الظاهرة والخفية سواء صدرت من اللسان

أو من القلب أو من الجوارح، ومن جعلتها دخول منازل الغير بإذن أو
 بغير إذن ﴿ **عليم** ﴾ فيحاسبكم عليها، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر. وفي
 هذا مزيد حث على الإخلاص ومراقبة **الله** تعالى في عموم الأحوال، وقد
 كثر مثل هذا التذليل في التنزيل؛ لأن لمراقبة مقام عزيز، عليها مدار
 السلوك وهي عنوان حياة القلب، واستنارة البصيرة، كما قال ابن عطاء
الله : إلهي عميت عين لا تراك رقيباً. ومن لا مراقبة عنده لا يرجى فلاحه
 ولو كثرت عباداته الظاهرة. وقد أراد بعض أفراد المشايخ مرة أن يظهر
 فضل تلميذ له كان يخصه بنوع من التحية والتكريم حتى سئل عن سبب
 ذلك فأعطاه كما أعطى كل واحد من تلامذته دجاجة وأصاه أن يذبحها
 بحيث لا يراه أحد، فعمد كل واحد من التلاميذ إلى مكان خال فذبح
 دجاجته إلا هذا التلميذ فإنه رجع بدجاجته حية، فسأله الشيخ بمحضر
 الناس: لماذا لم تذبح الدجاجة كما ذبح إخوانك؟ فقال: ياسيدي، لقد
 أوصيتني أن أذبحها بحيث لا يراني أحد، وأي مكان لا يراني فيه أحد؟
والله تعالى يراني أينما كنت. فنظر الشيخ إلى الناس حوله وقال لهم:
 لهذا بالغت في إكرامه وتعظيمه. وذلك لأن نظر المشايخ العارفين تابع
 لنظر الحق جل وعلا يقدمون من قدمه، ولو كان أبعد الناس منهم،
 ويمقتون من مقتته ولو كان أقرب الخلق إليهم، ومن هنا كان طريدهم
 طريد الحضرة العلية. نعوذ **بالله** من ذلك.

هذا ولا فرق في وجوب الاستئذان بين الأعمى والبصير كما هو
 ظاهر الآية الكريمة؛ لأنه إنما شرع لئلا يوقف على الأحوال التي يطويها
 الناس في العادة، ويتحفظون من اطلاع أحد عليها سواء كان ذلك

بواسطة البصيرة أو بغيره، ولا ينافي هذا قوله **ﷺ**: «إنما جعل الاستئذان من أجل النظر»؛ لأن معناه أن أهم شيء شرع له الاستئذان إنما هو النظر، فلا يدل على نفي مشروعيته لغيره، وهذا ما قاله **ﷺ** للرجل الذي نظر إليه من جحر وهو في إحدى حجراته **ﷺ** يحك رأسه الشريف بمدرى كان معه، فلما خرج قال له: «لو علمت أنك تنظر لطعنت به في عينك، إنما جعل الاستئذان من النظر».

ولما كان قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا...﴾ يشمل البيوت المسكونة وغيرها، مع أنه لا حرج في دخول الثانية من غير استئذان لفقد العلة فيها، استثناهما الحق تعالى بقوله: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا...﴾ إلخ.

وأخرج ابن أبي حاتم عن مقاتل أنه لما نزل قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا...﴾ إلخ قال أبو بكر **رضي الله عنه**: يا رسول الله فكيف بتجار قريش الذين يختلفون من مكة والمدينة والشام وبيت المقدس ولهم بيوت معلومة على الطريق؟ فكيف يستأذنون ويسلمون وليس فيها سكان؟ فرخص سبحانه في ذلك فأنزل قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ﴾ الآية. ومراد أبي بكر بقوله: ولهم بيوت معلومة على الطريق، أنها لهم على جهة الشيوع دون أن يكون لكل واحد منهم اختصاص بمكان معين، وإلا لما كان هناك محل للسؤال كما لا يخفى. والمعنى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ﴾ أي: حرج وإثم ﴿أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ﴾ لطائفة مخصوصة كالربط والحمامات والخانات والحوانيت المعدة لمصالح الناس كافة ﴿فِيهَا مَتَاعٌ لَكُمْ﴾ أي: نفع ومنفعة من بيع أو

شراء أو اتقاء حر أو برد أو مطر أو نحو ذلك. وإذا كان الجناح منفياً عن داخل هذه البيوت مطلقاً فنفيه عمن يتولى أمرها ويقوم بتدبيرها من الحراس ونحوهم يعلم بالطريق الأخرى ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾ أي: يعلم ما تظهرونه من الأعمال والأحوال، وما تخفون من الخواطر والنيات، فيعلم من دخل هذه المداخل بقصد حسن ولغرض شريف أو دخلها لفساد من تجسس أو اطلاع على عورات أو غير ذلك فيحاسبكم عليه بما تستحقون من مثوبة وعقاب. وهذا إيقاظ منه تعالى للعباد، وتنبية لهم ليحذروا بطشه ويخافوا عقابه، وليصفوا ضمائرهم وسرائرهم من المقاصد السيئة والنوايا الخبيثة، وحقاً إنه لمن أكبر الجنايات أن يستحي المؤمن من الخلق فيبدي لهم صالح أعماله ويعامل بالقبيح من هو أقرب إليه من حبل الوريد، ولهذا قال بعض الصالحين: أجل الأحوال الثقة بالمضمون، أي: الرزق، والقيام بالأوامر ومراعاة السر، أي: القلب، وذلك بتطهيره من ملاحظة الغير، وصونه عن شوائب العجب والرياء، والتخلي عن الكونين أي: عدم الركون إليهما وشغل القلب بمحبتهما اكتفاء بمحبة الله تعالى وحده.

ولما كان الأصل في مشروعية الاستئذان خشية النظر إلى العورات والوقوع في المحرمات، شرع القرآن الكريم بين الأحكام المتعلقة بالنظر والفرج، وهي أحكام عامة للمستأذنين وغيرهم فقال: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ...﴾ إلخ، وإنما خولف النسق السابق في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا...﴾ إلخ ووجه الخطاب هنا إلى النبي ﷺ بأن يأمر المؤمنين بغض أبصارهم وحفظ فروجهم؛ لأن أمر النظر والفرج أخطر، والابتلاء بهما

أشد، فاستدعى الحال للوقاية من شرهما، والأمن من غوائلهما وجود رقابة دائمة وهيمنة مباشرة من هذا المرشد الحكيم والمربي العظيم ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ سواء أرادوا دخول غير بيوتهم أو لا بأن كانوا مارين أو جالسين على الطريق أو في منازلهم ودخل عليهم من لان يحل لهم النظر إليه ﴿يَغْضُوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾ الأكثر على أن هنا للتبعيض، والمراد غض البصر عما يحرم والاقتصار به على ما يحل، فكأنه جعل الغض عن بعض المبصر غض لبعض البصر، وقيل: إنها زائدة للإشارة إلى أن أمر النظر أوسع، فإن المحارم يجوز النظر إلى شعورهن وأطرافهن، والأجنبية ينظر إلى وجهها وكفيها كما سيأتي بيانه إن شاء الله تعالى. وأما أمر الفرج فمضيق. والحكمة في تقديم الأمر بغض الأبصار عن الأمر بحفظ الفروج الإشارة إلى أن الأول وسيلة إلى الثاني، فمن صان نظره عن الحرام سهلت عليه صيانة فرجه عنه، كما أن التساهل في الأول مدعاة إلى وقوع الثاني في المحذور. وعن بريدة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا تتبع النظرة النظرة؛ فإن لك الأولى، وليست لك الآخرة». وذلك لأن النظرة الأولى ليس لها في الغالب كبير تأثير في القلب، ولا تحريك للشهوة بخلاف الثانية؛ لكونها إنما تقع عادة بعد استحسان الصورة المنظورة والإعجاب بها ورغبة التأمل في محاسنها، فلا ريب في أن يكن وقعها شديداً، وتأثيرها عميقاً، وإليها أشار رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله في حديث آخر: «النظرة سهم مسموم من سهام إبليس». ﴿وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ﴾ عما لا يحل لهم فعله بها من الزنا وغيره كاللواطه وتمكين الغير من النظر إليه ﴿إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ (المؤمنون: ٦)، وفي الحديث: «لعن الله

الناظر والمنظور إليه». ووجه اللعن بالنسبة للناظر ظاهر لمباشرته المعصية،
وأما بالنسبة للمنظور إليه فلتسببه وتمكينه حتى لو نظر شخص إلى عورته
وهو لا يشعر لا يكون آثماً. ﴿ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ﴾ أي: أبعد للريبة وأطهر
لنفوسهم من دنس الرذائل، وذلك لأن هاتين الشهوتين: شهوة النظر وشهوة
الفرج من أخطر الشهوات وأشدّها طغياناً وتمرداً على العقل، فكبح
جماحهما ومخالفة أمرهما من أشق الأعمال وأكبر المجاهدات. فلا جرم
كان لذلك أبلغ الأثر في تطهير النفوس وجلاء القلوب، وإنارة البصيرة،
فإن أفضل الأعمال أحمرها، أي: أشقها كما جاء في الحديث الشريف:
«والعطايا لا تأتي إلا على متن البلايا»، ويقدر ما يضيق الإنسان على نفسه
في عالم الحس، ويقمع نفسه عن شهواتها تكون استنارة قلبه واتساع حدقة
بصيرته، ففي الآية على هذا إشارة إلى وجوب تقديم التخلية على التحلية،
وأن استضاءة القلب بالأنوار لا يكون إلا بعد تطهيره من ظلمة الأغيار،
وإلى أن الغالب ربط المسببات بأسبابها. والشأن في مقامات الكمال أن تنال
بالجد والكسب. فليتنبه المسلمون إلى ذلك، وليحركوا جياذ هممهم
وينفضوا عنهم غبار الكسل والجمود، ولا يهملوا في الأسباب دينية كانت
أو دنيوية؛ لأن الله تعالى - وإن كان جواداً كريماً مدده دائم وفيضه لا ينقطع
- إلا أنه أمرنا بابتغاء فضله والتعرض لنفحاته. وهذا إنما يكن بالطلب
والسعي والأخذ بالأسباب التي شرعها وعلق حصول المطالب عليها. وقد
قال بعض الصحابة مرة لرسول الله ﷺ: سل الله لي الجنة يا رسول الله،
فقال عليه الصلاة والسلام: «أعني على نفسك بكثرة السجود». ﴿إِنَّ اللَّهَ

خَيْرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ بالأبصار والفروج وغيرها فيجازيهم على ذلك من

جنس أعمالهم، فمن حفظ حفظه الله، ومن ضيع ضيعه الله ﴿من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها وما ربك بظلام للعبيد﴾ (فصلت: ٤٦).

﴿وقل للمؤمنات﴾ مطلقاً في عموم الأحوال والأزمنة والأمكنة على نسق ما تقدم ﴿يفضضن من أبصارهن﴾ عن كل ما لا يحل لهن النظر إليه من عورات النساء والرجال. كما أمر الرجال بذلك؛ إذ لا فرق بين الجنسين، فإن كلاهما يتأثر بالنظر إلى محاسن الآخر، مع أن النساء أرق قلوباً وألين أفئدة، وأكثر انقياداً للعواطف وحكم الشهوات. وقد أخرج أبو داود والترمذي وصححه النسائي والبيهقي في سننه عن أم سلمة أنها كانت هي وميمونة عند رسول الله ﷺ قالت: فبينما نحن عنده أقبل ابن أم مكتوم فدخل عليه الصلاة والسلام فقال رسول الله ﷺ: «احتجبا منه»، فقلت: يا رسول الله، هو أعمى لا يبصر. قال: «أفعميا وان أنتما؟ ألستما تبصرانه؟» ﴿ويحفظن فروجهن﴾ عما لا يحل لهن فعله بها نظراً كان أو فعلاً، ومطالبة النساء بحفظ فروجهن أقوى وأشد من مطالبة الرجال بذلك؛ لأنهن وعاء النسل وموضع الحرث، ولأن العار اللاحق بتفريطهن في عرضهن أعظم من العار اللاحق بتهتك الرجال واستهتارهم. ولهذا بسط القرآن الكريم الكلام في شأنهن وأمرهن بمزيد من التصون والتستر، ولا غرابة فالرغبات إليهن طامحة، والأنظار إليهن ممتدة مع ما في طباعهن من حب التبرج والخيلاء، ولذلك كن أعظم فتنة بني إسرائيل كانت في النساء، كما جاء في الحديث الشريف، وروي أيضاً أن المرأة إذا أقبلت جلس إبليس على رأسها فزينها لمن ينظر، وإذا أدبرت جلس على عجيزتها فزينها لمن ينظر. ﴿ولا يبدن زينتهن﴾ أي:

مواضع زينتهن ﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ أي: إلا ما جرت العادة بظهوره منها وهو الوجه والكفان. عن عائشة أن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما دخلت على النبي صلى الله عليه وسلم وعليها ثياب رقاق، فأعرض عنها وقال: يا أسماء، إن المرأة إذا بلغت المحيض لم يصلح أن يرى منها إلا هذا وهذا، وأشار إلى وجهه وكفيه. وفي إعراضه صلى الله عليه وسلم عن أسماء في هذه الحالة - مع عصمته وتنزّهه عن أن تحل بساحة قلبه وساوس الشياطين - حجة ظاهرة على أولئك البطالين الكذابين الذين يتهاونون في النظر إلى النساء والخلوة بهن بحجة أنهم وصلوا إلى الله تعالى، وأصبحت قلوبهم متعلقة به، فلا ضرر عليهم من ذلك، وهم ما وصلوا إلا إلى الدركات السفلية والطباع البهيمية. ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ أي: ليسترن نحورهن وصدورهن بالمقانع لئلا يرى منها شيء، ولا يكن كنساء الجاهلية يغطين رءوسهن بالمقانع، ثم يسدلنها من خلفهن فتبدو نحورهن وقلائدهن من جيوبهن لسعتها - والخمر جمع خمار، وهو المقنعة التي تلقيها المرأة على رأسها، والجيوب جمع جيب فتحة في أعلى القميص يبدو منها بعض الصدر، والمراد هنا مواضع الجيوب من الجسد.

وصح أنه لما نزلت هذه الآية سارع نساء الأنصار إلى امتثال ما فيها فشققن مروطهن فاختمرن بها، أي: تقنعن بها تصديقاً وإيماناً بما أنزل الله تعالى من كتابه. ولله در نساء الأنصار، لقد كنّ سباقات إلى الخير، حريصات على العمل بالدين القويم، فهل لنساء اليوم أن يتأسين بهن ويسترن ما أمرهن الله تعالى بستره؟ ﴿وَلَا يَبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾، المراد هنا مواضع الزينة الخفية، وهي ما عدا الوجه والكفين ﴿إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ﴾ أي: أزواجهن، فيجوز لهم أن ينظروا منهن جميع الجسد حتى العورة نفسها، وإن

كان خلاف الأدب والكمال. ﴿أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءَ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءَ
 بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ﴾ أي: نساء
 دينهن اللاتي اشتركن معهن في الإيمان ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ﴾ من الإماء
 والعبيد، فإن هؤلاء جميعاً يجوز لهم أن ينظروا من النساء مواضع زينتهن
 الخفية، فيجوز لأب المرأة أو أب بعلمها... إلخ، أن ينظر منها الوجه والأطراف
 كالرأس والعينين والساق والذراع بخلاف نحو ثديها وبطنها، ومن باب أولى
 ما بين السرة والركبة، فإنه لا يجوز. وتزيد المرأة المسلمة بأن لها أن ترى من
 المرأة جميع أجزاء جسمها ماعدا ما بين السرة والركبة سواء كانت قريبة لها
 كأمها أو أختها أو لا، ولا يجوز لها نظر ما بين السرة والركبة. لكن عظم
 تساهل النساء في هذا الباب حتى ظن البعض أن للمرأة كشف عورتها
 للمرأة، خصوصاً إذا كانت أمها أو أختها، وهذا بلاء عظيم ووباء وخيم. أما
 المرأة الكافرة فلا يجوز لها أن تنظر من الحرة المسلمة أكثر من الوجه واليدين،
 بل بعضهم حرم جميع بدن الحرة المسلمة على الكافرة لئلا تصفها لزوجها
 الكافر، وعن عمر بن الخطاب أنه كتب إلى أبي عبيدة رضي الله عنه : أما بعد، فإنه
 بلغني أن نساء من نساء المسلمين يدخلن الحمامات مع نساء أهل الشرك، فإنه
 من قبلك عن ذلك، فإنه لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تنظر إلى
 عورتها إلا من كانت من أهل ملتها. وهكذا يجب أن تكون غيرة الولاة على
 الدين وسهرهم على حفظ الأخلاق. ومن لنا بمن يقفو أثره ياعمرو في هذا؟

والمنكرون لكل فعل منكر
 بعضاً ليدفع معور عن معور

ذهب الرجال المقتدى بفعالهم
 وبقيت في خلف يزكى بعضهم

والعبد إن كان وحشاً دميماً فله أن يرى من سيدته الوجه والأطراف
كمحرمها، وإن كان حسناً جميلاً فهو كالحر الأجنبي لا يرى إلا وجهها
وكفيها؛ لأنه فحل ليس بزواج ولا محرم، ودواعي الإغراء قائمة به. وقد كان
ابن مسعود والحسن وابن سيرين يقولون: لا ينظر العبد إلى شعر مولاته.
وسئل طاوس: هل يرى غلام المرأة رأسها وقدمها؟ فقال: ما أحب ذلك إلا
أن يكون صغيراً، فأما رجل ذو لحية فلا. وأما الأمة فالمحرم نظره منها لرجال
مطلقاً أو لنساء ما بين سرتها وركبتها، وكل هذا عند أمن الفتنة وعدم غلبة
الفساد وإلا حرم حتى نظر الوجه والكفين. وفي كتب الفروع الفقهية
تفصيلات وافية واختلافات مقررة بين المجتهدين في هذا المقام، وما ذكرناه
هو الجاري على مذهب إمامنا الإمام مالك بن أنس رضي الله عنه **﴿أَوِ التَّابِعِينَ﴾** هم
الشيوخ الطاعنون في السن الذين لا يشتهون النساء لضعفهم وكبر سنهم.
والبله الذين لا يعرفون الأرض من السماء، ولا الرجل من المرأة، ولذلك
وصفهم **الله** بقوله: **﴿غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ﴾** - والإربة بالكسر:
الشهوة والحاجة إلى النساء - فيجوز لهم أن ينظروا من المرأة وجهها
وأطرافها فقط عند مالك رضي الله عنه. وأما الخلوة فلا تجوز، وما عمت به البلوى
التسامح في إدخال البله وأشباههم على النساء في البيوت، وأكثرهم ممزق
الثياب، بادي العورة، وهذا فسق ورقّة دين وعدم غيرة على المحارم، فإن
الأبله - وإن كان لا يعرف أمر النساء - إلا أن نظر المرأة إلى عورته لا يجوز
قطعاً، وربما اتخذت من بلهه وعدم قدرته على التحدث بما يجري ذريعة إلى
قضاء شهوتها معه. فعلى الرجال أن يحموا بيوتهم من أمثال هؤلاء ولو
كانوا (مجازيب) حقيقة، فإن الاعتقاد في شخص لا يستلزم إهدار الأحكام

الشرعية وانتهاك حرمتها المقدسة، فهب أن فلاناً المجذوب هو (القطب المتولي) فلا يحل لنا على كل حال تمكينه من غشيان المنازل والدخول على النساء، إلا إذا كان مستور العورة، وأمن جانب الفتنة والفساد. ﴿أَوْ الطِّفْلُ﴾ أي: الأطفال بدليل وصفه بالجمع في قوله: ﴿الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ﴾ أي: لم يعرفوها ولم يميزوا بينها وبين غيرها، أو الذين لم يبلغوا حد الشهوة والقدرة على الوقاع. قال بعض المحققين: اعلم أن الصبي إما ألا يبلغ أن يحكي ما رأى وهذا غيبته كحضوره، أو أن يبلغه وليس فيه ثوران شهوة وهذا كالمحرم، أو يعرف أمر الجماع والشهوة، وهذا كالبالغ باتفاق مالك والشافعي، وينبغي أن يعلم أنه لا يلزم من جواز نظر الرجل لشيء من جسد المرأة على التفصيل السابق جواز الجس له، ولذلك لا يجوز للأجنبي مصافحته للأجنبية من غير حائل، ولا وضع يده على وجهها مثلاً، وهذا بخلاف المحرم، فإنه كما يجوز له نظر الوجه والأطراف من محرمه يجوز له مباشرة ذلك منها بغير لذة. والعورات جمع عورة وهي في الأصل الخلل في الثغر وما يتوقع منه ضرر وفساد، فأطلقت على ما لا يجوز نظره من النساء والرجال لتوقع الفساد من ذلك.

ثم بالغ القرآن المجيد في نهى النساء عن التبرج وإظهار ما يلفت الأنظار ويستميل قلوب الرجال إليهن فقال: ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ﴾ أي: ولا يضربن الأرض ونحوها بأرجلهن ليعلم ما خفي من زينتهن كالخلخال وما في معناه. وهذا في الحقيقة ليس بعورة، وإنما نهى الله تعالى عنه من باب سد الذرائع كما نهى النبي ﷺ عن خروج المرأة متعطرة ليجد الناس ريحها لهذا المعنى بعينه.

ولعمري إن في هذه الآية الكريمة وما تضمنته من دعوة النساء إلى غض أبصارهن وعدم إبداء زينتهن إلا لبعولتهن... إلخ، قطعاً لمزاعم الزاعمين أنه لا حجاب على المرأة في الإسلام، وأن **الله تعالى** قد سوى بينها وبين الرجل في جميع الحقوق والواجبات، حتى زعموا أن من حقها أن تكون نائباً وقاضياً ووزيراً... إلخ، وأن تختلط بالرجل وتشاركه في أعماله الخارجية، وفي إلقاء المحاضرات وشهود المسامرات، وحضور الحفلات في الأماكن العمومية.. وغيرها، وأن تسافر إلى البلاد الغربية بدون محرم معها إلى غير ذلك من المبادئ الخاطئة والمزاعم الباطلة. وقد كتبنا قبل ذلك في هذا الموضوع كلمة نشرناها بمجلة «الإسلام» الغراء أثبتنا بها أن الحق فيه بين ما يدعو إليه المتطرفون الغالون وبين ما يتمسك به الجامدون والمتنطعون. ونعود الآن فنقول: إن **الله تعالى** خلق الزوجين الذكر والأنثى، وخص كل واحد منهما بوظيفة قد هيأ لها وجعله مستعداً استعداداً طبيعياً لمباشرتها والقيام بأعبائها ليتم بذلك ما أراده جل وعلا من عمارة هذه الحياة الدنيا. فخص المرأة بتدبير المنزل وتربية الطفل؛ لأنه خلقها مهياً ومعدة لذلك، حيث جعل في ثديها غذاءه وقوام حياته، وفي بطنها وعاء له مدة تسعة أشهر. وخص الرجل بمزاولة الأعمال الخارجية والقيام بتكاليفها الشاقة؛ لأنه خلقه مهياً ومعداً لذلك بما أعطاه من قوة العقل وبسطة العلم والجسم.. ولا ندري كيف غفل أنصار التجديد ودعاة السفور عن هذا المعنى مع زعمهم أنهم فلاسفة العصر وأرباب العقول الناضجة؟ ﴿وَمَنْ لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُّورٍ﴾ (النور: ٤٠) ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾

ما أطف هذا الاختتام وما أحسنه، فكأن **الله** تعالى يقول: لا تقنطوا أيها المؤمنون من رحمتي ولا تيأسوا من روحي، فإني أقبل التوبة من عبادي، وأعفو عن سيئاتهم متى رجعوا إليّ بصدق الندم، فمن كان قد وقع منه شيء مما نهيته عنه في الآيات السابقة وغيرها فليتب منه، فإن التوبة مقبولة وبابها مفتوح، وهي التي يترتب عليها الفلاح والظفر بالمقصود. ويحتمل أن يكون المعنى: ﴿وتوبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون﴾ أي: ارجعوا وتقربوا إليه تعالى بامثال ما تضمنته هذه الآيات وعدم التهاون فيه لعلكم تفلحون. والتوبة من مقامات السالكين ومنازل المريدين، واتفقوا على أنها واجبة من جميع المعاصي صغائرها وكبائرها على الفور. وأركانها ثلاثة: الإقلاع عن الذنب في الحال إن كان متلبساً به، والعزم على عدم العودة، والندم على ما فات وهو أعظمها كما قال **عليه السلام**: «الندم توبة» ويشترط في الندم أن يكون لله تعالى فلا ينفع إن كان لضياح مال أو تلف صحة أو نحو ذلك. وما أحسن قول من قال:

وإذا نزعت عن القبائح فليكن لله ذاك النزع لا للناس

وسئل ذو النون المصري **رضي الله عنه** عن التوبة فقال: توبة العوام من الذنوب وتوبة الخواص من الغفلة. وعن بعضهم: شتان ما بين تائب يتوب من الزلات، وتائب يتوب من الغفلات، وتائب يتوب من رؤية الحسنات. وفي الحديث عنه **عليه السلام** أنه قال: «يا أيها الناس، توبوا إلى الله، فإني أتوب إليه في كل يوم مائة مرة»، وعنه عليه الصلاة والسلام: «لله أفرح بتوبة التائب من الظمآن الوارد، ومن العقيم الوالد، ومن الضال الواجد». والأحاديث الواردة في طلب التوبة وفضلها كثيرة؛ لأنها طريق الفلاح كما

قال عز شأنه هنا: ﴿لَعَلَّكُمْ تَفْلَحُونَ﴾ أي: لعلكم تفوزون بالمطلوب وتظفرون بالمرغوب. والتعبير بلعل في مثل هذا المقام لا للشك في قبول التوبة أو التردد في ترتب الفلاح عليها؛ بل للإشارة إلى ما ينبغي أن يكون حال المؤمن عليه من الخوف والوجل لعدم الوثوق بتحقيق شروطها. والتعبير بقوله تعالى: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ﴾ من باب تغليب الذكور على الإناث.

ولما كان النكاح من أهم الأسباب الموجبة للعفة الداعية إلى غض البصر وحفظ الفرج، كما في الحديث الشريف: «يامعشر الشباب، من استطاع منكم الباءة فليتزوج؛ فإنه أغض للبصر، وأحصن للفرج...» إلخ مع كونه في ذاته من المقاصد السامية؛ إذ به حفظ النوع الإنساني على وجه سالم من اختلاط الأنساب، ناسب أن يأمر الله سبحانه وتعالى به عقب الأمر بغض الأبصار وحفظ الفروج فقال: ﴿وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَى﴾... إلخ. وهذا خطاب لأولياء الأمور وأصحاب الكلمة في الأمة بأن يسعوا في ترويج الزواج وتوجيهه إلى نفوس الخالين منه، وتشجيعهم عليه بمختلف الوسائل، ومساعدتهم على مؤنه بقدر المستطاع عملاً على نشر الفضيلة وتمكين أصول العفاف في نفوس الأمة. ويستفاد منه أن ولي الأمر أبا كان أو سيداً أو معلماً أو حاكماً مطالب بتعهد من في حيازته والنظر في مصلحته، وأن يعني بذلك عناية جدية بأن يقصيه عن مواضع اللهو والفجور، وينفره من عواقب البطالة والكسل ويحبب إليه النشاط والعمل، ويزوده بالمعلومات النافعة له في معاشه ومعاده ليكون عضواً نافعاً في المجتمع الإنساني، ولتعظم به ثروة الأمة من الرجال النافعين. والأيامي:

جمع أيم، وهو من لا زوج له رجلاً كان أو امرأة، سبق له تزوج قل ذلك أم لا. والأمر في قوله: ﴿وَأَنْكِحُوا﴾ للوجوب إن خيف الزنا على الرجل أم المرأة، أو اضطرت المرأة للنفقة، فإن لم يخف الزنا ولم تضطر المرأة للقوت كان الإنكاح المذكور مندوباً فقط لا واجباً. والمراد بالأيامى هنا خصوص الأحرار والحرائر لقوله عز وجل: ﴿وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ﴾ أي: المؤمنين من عبيدكم وإمائكم المملوكين لكم، فالمراد من الصلاح مطلق الإيمان، سواء انضم له غيره من أعمال البر أم لا، وقيل: بل المراد معناه المعهود شرعاً، أي: امتثال الأوامر واجتناب النواهي، أو القيام بحق الخالق وحق المخلوق، وذلك لأن من لا صلاح له بهذا المعنى فليس خليقاً بأن يعتني مَوْلَاهُ بشأنه ويشفق عليه، ويتكلف القيام بمصالحه، والأمر بالنسبة لهؤلاء قيل: للوجوب، وإليه ذهب الإمام الشافعي رضي الله عنه إن خيف الزنا بترك الزواج، وقال مالك رضي الله عنه: لا يجب على السيد تزويج عبده ولو خشي عليه الزنا، وعليه فالأمر للندب. ﴿إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ أي: فلا يمنعكم فقرهم من تزويجهم، فإن مع العسر يسراً، إن مع العسر يسراً، فلا تبالوا بفقر الخاطب بعد وجود الصلاح، وثقوا بأن الله تعالى قادر على كفايته وإغنائه؛ لأن بيده الأمور كلها. وربما كانت الزوجة والعيال سبباً في سعة الرزق وإغداق النعم. فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ثلاثة حق على الله تعالى عونهم: الناكح يريد العفاف، والمكاتب يريد الأداء، والغازي في سبيل الله تعالى». وعن جابر رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم يشكو إليه الفاقة فأمره أن يتزوج. وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «التمسوا الرزق بالنكاح»، ولا ينبغي

استبعاد ذلك أو التردد فيه، فإنه وعد الله الذي لا يخلف الميعاد، وبلاغ الصادق الذي لا يكذب ولا ينطق عن الهوى، صلوات الله وسلامه عليه، وأي مانع من أن يعلق الله تعالى سعة الرزق على النكاح بأن يجعل ما يصدر من الزوجين من التعاطف والتودد سبباً في ذلك. وذكر بعضهم أن لغنى الفقير إذا تزوج سبباً عادياً وهو مزيد من اهتمامه في الكسب والجد التام في السعي، حيث ابتلي بمن تلزمه نفقتها وينضم لذلك مساعدة المرأة له وإعانتها إياه على أمر دنياه.

والظاهر أن المراد بالرزق في قوله **عَلَيْهِ السَّلَام** : «التمسوا الرزق بالنكاح» وما يعم الرزق الحسي، وهو رزق البدن ويلتحق به الولد، والمعنوي وهو رزق الروح الحاصل بالعفة وصوص النفس عن الحرام. كما أن الظاهر أيضاً أن العموم في مثل هذا الحديث غير مراد، فلا ينبغي للعاقل الإقدام على النكاح من غير أن يجهز مؤنه ويعد عدته اللازمة اتكالا على ذلك، والله أعلم **﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ﴾** أي: كثير العطايا جزيلاً، خزائنه لا تفنى وبحار جوده لا تنفذ **﴿عَلِيمٌ﴾** بأحوال عباده وما يصلحهم من غنى أو فقر وعافية وبلاء، فيعطي كلاً ما يناسبه تفضلاً منه وإحساناً كما قال في آية أخرى: **﴿إِنَّ رَبَّكَ يَسُطُّ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾** (الإسراء: ٣٠)، ولكن العبد لجهله بما يصلح نفسه وعدم معرفته بالعواقب يستعجل ويضجر ويستبطئ ما عند الله تعالى من العاقبة والغنى والفرج والنصر إنه كان ظلوماً جهولاً **﴿وَلَيْسَتَّعْفُفِ الدِّينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا﴾** أي: الذين تآقت نفوسهم للنكاح، وتوافرت قوتهم عليه مع عجزهم عن مؤنه وتكاليفه، أي: ليجتهدوا في طلب العفة وتحصيلها بتحصيل أسبابها من

الاشتغال بالأعمال الصارفة عن التفكير في هذا الأمر، واستعمال الرياضات المأذون فيها شرعاً: كالصوم، والإكثار من ذكر **الله** تعالى، ومن التباعد عن كل ما يحرك الشهوة ويهيئها كالنظر إلى النساء، أو تعاطي العقاقير الحارة، أو نحو ذلك، «من يستعفف يعفه **الله**» كما قال النبي المعصوم **عليه السلام**.

﴿ **حَتَّى يَغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ** ﴾ بأنس يعطيهم المال الذي ينكحون به، أو يمنحهم المدد الذي يهزم جنود الشهوة والهوى. وقوله تعالى: ﴿ **حَتَّى يَغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ** ﴾ ليس المقصود منه تقييد الأمر بالاستعفاف بهذه الغاية، بل بيان أن ما قبل الغاية هو الوقت الذي يحتاج فيه إلى المجاهدة والصبر واحتمال الكلفة في طلب العفة وصون النفس عما هي مجبولة عليه من شدة الميل إلى هذه الشهوة الجبارة التي لا سبيل إلى قضائها الآن، ولا علاج لها إلا تجرع مرارة الصبر في مغالبتها ومكافحتها. وأما مع الغنى واليسار فلا حاجة إلى كل ذلك؛ لأن إرضاءها بطريق التزوج أو التسري لا مانع منه في هذه الحالة ﴿ **وَالَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ** ﴾.

... إلخ. هذا أمر من **الله** سبحانه وتعالى لسادة العبيد أن يكاتبوا من استحق الكتابة منهم لكي يصير حراً يتصرف لنفسه بنفسه بعد أن أمرهم بإنكاح الصالحين منهم الأحقاء بالنكاح. وهذا غاية في الحث على الرفق والإحسان إلى المماليك. وفي الحديث الشريف: «إخوانكم خولكم، جعلهم **الله** تحت أيديكم، ولو شاء لجعلكم تحت أيديهم». وفيه أيضاً: «لا يقولن أحدكم عبدي وأمتي، ولكن ليقل: فتاي وفتاتي» إلى غير ذلك من الأحاديث والآثار الدالة على الرفق بالمماليك، والإحسان إليهم واعتبارهم إخوة فلا يظلمون ولا يكلفون من الأعمال من لا يطيقون. ولهذا كان كثير من

الصحابة والسلف الصالح رضوان الله عليهم أجمعين يبالغون في إكرام عبيدهم وحسن معاملتهم إلى حد كبير حتى روي أن علياً - كرم الله وجهه - أعطى غلامه دراهم ليشتري بها ثوبين، فلما أحضرهما له أعطاه أرقهما نسيجاً، وأعلاههما قيمة، وترك لنفسه الآخر، وقال: أنت أحق مني بأجودهما؛ لأنك شاب وتميل نفسك للتجمل، وأما أنا فقد كبرت ويكفيني هذا. والأمر في قوله تعالى: ﴿فَكَاتِبُوهُمْ﴾ للندب على الصحيح، وهو مذهب الجمهور. والكتابة لفظة إسلامية لا يعرفها الجاهلية، وأول من كُتِبَ في الإسلام عبد لعمر رضي الله عنه على ما حكاه بعضهم.

وكيفية الكتابة أن يقول السيد لعبده: كاتبتك على ألفين مثلاً في شهرين، كل شهر بألف، وإذا أديتهما فأنت حر. فيقول العبد: قبلت. وبقية الكلام في الكتابة محله كتب الفروع الفقهية. ومعنى الآية الشريفة والذين يطلبون الكتابة من مماليتهم ذكوراً كانوا أو إناثاً فكاتبوهم ﴿إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾ أي: أمانة وقدرة على الكسب بحرفة أو غيرها حتى يمكنهم أداء مال الكتابة ﴿وَأَتَوْهُمْ مِنْ مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ﴾ أي: وأعطوهم بعض ما آتاكم الله تعالى من الأموال ليستعينوا به على أداء ما التزموه من نجوم الكتابة. وفي حكم الإيتاء المذكور حط شيء من مال الكتابة. ولم تعين الآية الشريفة مقدار ما يؤتى من المال للدلالة على أنه يكفي في ذلك الكثير والقليل. وصحح الحاكم عن النبي صلی الله علیه وسلم أنه قال: يترك للمكاتب الربع. واستحسن ابن مسعود والحسن إيتاء الثلث، وابن عمر إيتاء السبع، وقتادة إيتاء العشر. والظاهر أنه لا تحديد وأن ذلك يختلف باختلاف الأحوال والأشخاص، وهذه الآثار المختلفة شاهدة

بذلك. ﴿ وَلَا تُكْرِهُوا فَتِيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا ... ﴾ إلخ، نزل هذا في جماعة من العرب منهم عبد الله بن أبي بن سلوك كانوا يكرهون فتياتهم على الزنا؛ ليأخذوا أجورهن أو لطلب أولادهن. وقد أخرج مسلم وأبو داود عن جابر رضي الله عنه أن جارية لعبد الله بن أبي يقا لها: مسيكة وأخرى يقال لها: أميمة، كان يكرههما على الزنا، فشكتا ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فنزل قوله تعالى: ﴿ وَلَا تُكْرِهُوا فَتِيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ ﴾ أي: لا تجبروهن ولا تضطروهن إلى البغاء وهو الزنا ﴿ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا ﴾ أي: تعففاً وابتعاداً عنه ﴿ لَتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ أي: متاعها الزائل، ونعيمها الحائل، فإن ذلك ليس من السبل المشروعة لاكتساب المال وجمع الحطام. ولا مفهوم للإكراه، ولا لإرادتهن التحصن، ولا لابتغاء عرض الحياة الدنيا بذلك، بل مجرد رضا السيد - ومثله كل ذي ولاية - بزنا أمته سواء أرادت التحصن أم لا، ابتغى بذلك عرض الحياة الدنيا أم لا، قبيح ومذموم، وإنما التقيد بهذه القيود لما في ذلك من وصف للحالة التي كانت عندهم، وبيان للعادة التي كانت متفشية بينهم، وليكون فيه مزيد تقبيح لفعالهم وتشنيع عليهم، فإن أدنى الناس مروءة وأقلهم غيرة وأحطهم كرامة لا يكاد يرضى بفجور من يحويه بيته من إماءه، فضلاً عن أمرهن به، وإكراههن عليه، لا سيما عند إرادة التعفف منهن، مع نقصان عقلهن، وتوفير شهوتهن ﴿ وَمَنْ يُكْرِهِنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ أي: ومن يكرههن على البغاء - وغيره كذلك - فقد استحق المؤاخظة والعقاب، ورجعت عليه وحده غائلة إكراهه، ولا يضر من أكرههن بشيء فإن الله تعالى غفور لهن، فلا يؤاخذهن على هذا الفعل الذي لم يتعرضن له ولم يتسببن فيه، رحيم

بهن فلا بد أن يجعل لهن مخرجاً من هذا الضيق المستحکم. روي عن الحسن رضي الله عنه أنه كان إذا قرأ هذه الآية يقول: لهن **والله** لهن: وثبتت كلمة «لهن» في قراءة ابن مسعود. ووجه قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ لعله لأنهن وإن كنَّ مكرهات لا يخلون في تضاعيف الزنا من شائبة مطاوعة واختيار بحكم الحيلة البشرية. والتقييد بقوله تعالى: ﴿مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ﴾ للدلالة على أن الإكراه في كل مرة شرط في رفع الحرج والإثم. ثم قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ...﴾ إلخ، وهو كلام مستأنف جيء به في تضاعيف ما ورد من الآيات السابقة واللاحقة لبيان جلالة شأنه وعظم خطرهما، وأهميتها وللحث على تأملها، والعمل بمضمونها، أي: وبالله لقد أنزلنا إليكم في هذه السورة الكريمة آيات مظهرات وموضحات لكل ما لكم حاجة إلى بيانه من الحدود والأحكام والآداب فيما يتعلق بالمعاش أو بالمعاد، توضيحاً لا تبقى معه ذرة من اللبس والغموض، ولا غرو فما جاءنا صلوات الله عليه إلا بالشرعية البيضاء والمحجة الغراء التي لا يضل سالكها ولا يتحير الناظر فيها:

لم يمتحنا بما تعيا العقول به حرصاً علينا فلم نرتب ولم نهم

﴿وَمَثَلًا مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ﴾ أي: وأنزلنا إليكم مثلاً وخبراً عجيباً من قبيل أمثال الأمم الماضية قبلكم من القصص العجيبة، والأمثال المضروبة لهم ﴿وَمَوْعِظَةً﴾ أي: وأنزلنا إليكم أيضاً موعظة تتعظون بها فتزجرون عما لا ينبغي من الأفعال والأقوال المخلة بمحاسن الآداب ومكارم الأخلاق. وإنما قيد الموعظة بقوله تعالى: ﴿لِّلْمُتَّقِينَ﴾ للحث على اغتنام الانتظام في سلوكهم والاندماج في زميرتهم، أو لبيان أنهم الفاهمون

لأسرارها، المقتبسون من أنوارها لزوال الحجب عن قلوبهم، وانقشاع سحب الجهل والغفلة عن عقولهم، بخلاف المصر على فجوره، المتماذي في غروره، فإنه لا ينتفع بموعظة ولا ينزجر عن قبيح. والتقوى: عبارة عن امتثال الأوامر واجتناب النواهي ظاهراً وباطناً.

ولا يتم اتصاف العبد بها حقيقة حتى يعرف قدر نفسه ويغيب عن جميع أعماله، ويتحقق ذوقاً بمعنى قوله عز وجل: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ (الصفات: ٩٦) فلا يفخر ولا يتكبر، ولا يشهد لنفسه حولاً ولا طولاً، وعند ذلك يسقيه الله تعالى رحيق محبته، ويخلع عليه خلعة كرامته، ويطلعه على ما شاء من جلال ربوبيته ومكنون غيبه، وينادي به في ملكوت السماوات والأرض: «هذا عبي حَقًّا وولي صدقًا، من والاه فقد والاني، ومن عاداه فقد عاداني، ولئن سألتني لأعطينه، ولئن استعاذ بي لأعيذنه».

نظمنا الله تعالى في سلك هذا الفريق بجاه محمد ﷺ وآله.



بسم الله الرحمن الرحيم

قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ

اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ صدق الله العظيم

[من سورة العنكبوت: ٦٩]

مقدمة

خلق الله تعالى الإنسان وأودع فيه قوتين مختلفتين إحداهما نزاعة إلى الشر، أمانة بالسوء. والأخرى على عكسها نزاعة إلى الخير، ميالة للعدل، محبة للقرب من الله تعالى، تواقية للوصول إليه. وقد اقتضت حكمته عز وجل - رحمة بالإنسان وإرادة لسعادته وكماله - أن يشرفه بالتكليف وهو عبارة عن جهاد ونضال بين هاتين القوتين المتخالفتين في المنازع والأغراض. جهاد لا نهاية له إلا بانتهاء الحياة وافتراق البدن والروح.

فالإنسان ما وجد في هذه الحياة الدنيا إلا للمجاهدة والكفاح في ميادينها الواسعة النطاق المترامية الأطراف. وعلى قدر جهاده ومبلغ كفاحه تكون منزلته من الله تعالى ومقامه عنده، ويكون ترقيه في مقامات الرفعة والكمال. ومن كلمات الصوفية في هذا المقام: «من زين ظاهرة بالمجاهدة، زين الله باطنه بالمشاهدة، ومن كانت بدايته محرقة، كانت

نهايته مشرقة»: يريدون أن كمال المعرفة وإشراق القلب بأنوار اليقين لا يكون مع التكاسل والتخاذل، بل لأبد من المجاهدة والمكابدة وإماتة صفات النفس المذمومة واستبدال الأخلاق الفاضلة المحمودة بها.

وليس يعجز **الله** تعالى أن يمنح الكمال بلا مشقة، ويكرم عبده بدون جهاد ولا تكليف، ولكن هكذا سبق في علمه القديم وتقديره الحكيم أن لكل شيء سبباً، فالفوائد في طيء الشدائد والعطايا على متن البلايا، **والله** تعالى أحكم الحاكمين. ناط السعادة بالجد، والمثوبة بالعمل الصالح إظهاراً لحكمته وإشعاراً بجلال ربوبيته ﴿**تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ**﴾ (الملك: ٢٠١).

• أنواع الجهاد:

الجهاد لا يكون إلا بين خصمين متنازعين وعدوين متشاحنين، وأنواعه ثلاثة: جهاد النفس والشيطان، وجهاد إخواننا في الدين المتهاونين في أحكامه وتعاليمه، وجهاد أعداء الدين المخالفين لنا في العقيدة.

جهاد النفس والشيطان:

أما جهاد النفس والشيطان فهو الجهاد الأكبر؛ لأنه جهاد في عدو باطن يراك ولا تراه، شديد المكر عظيم الحيلة، ملازم لك بالليل والنهار، في النوم واليقظة، والحركة والسكون. يجري منك مجرى الدم في العرق، لا يفتر ولا ينقطع. ومرجع هذا الجهاد إلى تخلية النفس من أوصافها الذميمة كالحقد والحسد والكبر والعجب والرياء والبخل والطمع والحرص، وما إلى ذلك من

الأمراض الباطنية المهلكة، وتحليتها بالأخلاق الفاضلة الكريمة، كأن يكون: حليماً متواضعاً نزيهاً عفيفاً، مخلصاً لله تعالى في السر والعلن، عادلاً في الرضا والغضب، مقتصدًا في الغنى والفقر، صابراً عند الابتلاء، شاكراً في العطاء، مراقباً أنفاسه وسائر حركاته وأعماله، لا تصدر منه حركة ولا عمل إلا بنية صالحة ولمقصد شريف.

جهاد إخواننا في الدين:

والنوع الثاني من أنواع الجهاد هو جهادنا لإخواننا المشتركين معنا في الدين، المشتركين معنا في الانتماء إليه، ولكن فتنهم الدنيا بمناظرها الجذابة ومظاهرها الخلابة حتى أصبحوا أسارى بأيدي الشهوات، سُكَّارَى بمحنة اللذات، تساهلوا في تطبيق أحكام الدين والعمل بأوامره ونواهيه من غير جحود ولا إنكار. وهذا الضرب من الجهاد هو عبارة عن التصدي للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وقد اشتد مسيس الحاجة إليه في الآونة الحاضرة لما انتشر فينا من القبائح والزور، ولما فشا بيننا من التفريط والإهمال، مع أنه أساس حياة الأمة، وبدونه لا تتوفر لها سعادة ولا هناء. كما صرحت به الأحاديث الشريفة كقوله عليه السلام: «من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان». وأخرج البخاري في صحيحه عن النعمان بن بشير رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «مثل القائم في حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة فصار بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها، وكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم فقالوا: لو أننا خرقنا في نصينا خرقاً ولم نؤذ من فوقنا، فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً،

وإن أخذوا على أيديهم نجو ونجوا جميعاً». والقائم في حدود الله ..
معناه: المنكر لها، القائم في دفعها وإزالتها ، والمراد بالحدود: ما نهى الله
عنه، ومعنى استهموا: اقترعوا.

وعن أبي بكر الصديق رضي الله عنه قال: يا أيها الناس إنكم تقرأون هذه
الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا

اهْتَدَيْتُمْ﴾ (المائدة: ١٠٥) ، وإني سمعت رسول الله صلوات الله عليه وسلم يقول: «إن الناس
إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب منه»
أخرجه أبو داود والترمذي والنسائي. وعن حذيفة رضي الله عنه أن النبي صلوات الله عليه وسلم
قال: «والذي نفسي بيده لتأمرن بالمعروف، ولتنهون عن المنكر، أو
ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقاباً منه، ثم تدعونه فلا يستجاب لكم»
رواه أبو داود. وفي هذه الأحاديث النبوية الشريفة تصريح جلي بأن
سلامة الدولة وصيانتها من العبث والفوضى والتدهور والانحطاط
تتوقف على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأنه لا يعفينا من المسؤولية
توهم البعض أنهم يسعون في الخير والمصلحة، ولا يقصدون الإفساد
والضرر مادامت إصلاحاتهم لا تتفق مع الدين، ولا تقوم على أساسه
المتقين، وكثيراً ما يكون الشخص مريضاً وهو لا يشعر بأنه مريض، وكم
من مستحسن أمراً لا حسن فيه كما قال القائل:

يقضى على المرء في أيام محنته حتى يرى حسناً ما ليس بالحسن

فمهمة الوعاظ والمرشدين الن من أشق المهمات؛ لأن عليهم أولاً
أن يقنعوا هؤلاء الخارجين على الدين بأنهم خارجون عليه، وأن ما هم
عليه وما يدعون إليه ليس من الدين في شيء. وعليهم ثانياً أن

يرشدوهم إلى العلاج النافع والدواء الناجع للتخلص من هذه الأوجال التي تورطوا فيها وانغمسوا في حماتها، مع التلطف واستعمال الحكمة والمحافظة على النظام.

جهاد مخالفينا في الدين؛

وأما جهاد مخالفينا في العقيدة والدين فمحصله القيام بالدعاية الدينية المنظمة والمجادلة بالتي هي أحسن، الخالية من الشدة والعنف. وعندنا أن هذا النوع من الجهاد متى نظم وأحكمت وسائله فإنه يأتي بأحسن النتائج وأطيب الثمرات، وقد رسم لنا رسول الله ﷺ خطته بما قام به في أخريات حياته المباركة من إرسال البعث والرسائل إلى القبائل والنواحي لنشر الدين وتبليغ أحكامه وآدابه، وكذلك فعل خلفاؤه الراشدون، فعلينا بسنته وسنتهم، ولنعض عليها بالنواجذ فإنها سبيل السعادة وطريق الفلاح.

هذا، والجهاد في الآية التي معنا شامل لهذه الثلاثة، والمعنى ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا﴾ أي: جاهدوا النفس والهوى والشیطان، وجاهدوا كل خارج على الدين أصوله وفروعه على الطريقة التي سار عليها رسول الله ﷺ وخلفاؤه الراشدون، وهي طريقة واضحة جلية لا لبس فيها، ولا إبهام، سداها ولحمتها الإخلاص لله تعالى والتفاني في محبته والاعتماد عليه، مع الثبات على الحق وعدم المساومة فيه، أو الانخداع عنه بالحيل المموهة والشقائق المزخرفة، كما بين الحق تعالى ذلك بقوله: ﴿فِينَا﴾ أي: في شأننا ومن أجلنا وابتغاء مرضاتنا، على الخطة التي رسمها لهم نبينا صلوات الله وسلامه عليه، تلك الخطة التي لا سمعة فيها

ولا رياء، ولا طلب للشهرة وإذاعة الصيت، ولا هواة ولا جبن، ولا غير ذلك من العلل والآفات التي تشوب العمل وتجعل الجهاد عقيماً **﴿لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾** أي: لنزيدنهم هداية وتوفيقاً إلى الخير وعمل الطاعات، فإن مراتب الهداية والتوفيق لا نهاية لها، وما من كمال إلا وعند الله أكمل منه، لهذا كلفنا الله تعالى بطلب الهداية منه في اليوم واليلة جملة مرات **﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾** (صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين) (الفاتحة: ٦، ٧).

ويقرب من هذا أو هو عينه قول من قال: لنهدينهم سبل محبتنا والوصول إلينا، فإنه لا سبيل للمحبة والوصول إلا طاعة الله تعالى وذكره. أخرج البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن الله تعالى قال: من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضته عليه، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني أعطيته، ولئن استعاذني لأعيذنه».

والوعد في الآية الكريمة والحديث الشريف وعد مطلق غير مقيد بزمان ولا مكان، فكل من جاهد في الله تعالى واستقام على طريقته، وأخلص له عمله وتقرب إليه بما يحبه، منحه الوصول وأكرمه بالمحبة والقبول، فما حرم من حرم إلا من عدم التوجه وقلة الصدق وسوء الأدب، وإلا فحاشا للكريم المنان أن يتوجه إليه صادق فيرده، وجل ربنا أن يعامله العبد نقداً فيجازيه نسيئة كما قال العارف ابن عطاء الله في حكمه.

وقيل: معنى ﴿لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ لندخلنهم جناتنا يوم القيامة كقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى﴾ (٥) ﴿وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى﴾ (٦) ﴿فَسَنِّيَسِرُهُ لِلْسِرَى﴾ (الليل: ٥، ٧)، أي: الجنة، وعلى كل ففي الآية حث شديد على مجانبة الكسل وترك التواني والتشمير في طاعة الله تعالى، فالعاقل من اغتنم حياته ودان نفسه وعمل لما بعد الموت، والأحمق العاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى الأمانى ﴿وَإِنَّ اللَّهَ﴾ تعالى واجب الوجود وخالق العالم كله، القابض على نواصي العباد المتصرف في كل شيء، من له جنود السماوات والأرض، ولا يعلم جنوده إلا هو، من لو أراد نفع إنسان نفعه ولو على يد عدوه، ولو أراد ضرره ولو على يد صديقه. هذا الإله القادر الحكيم ﴿لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ معية خاصة، وذلك لأن الله تعالى مع الكل، بعلمه وإحاطته وقدرته وتصرفه، ومع الخواص المحسنين بنصره ومعاونته وتأيدته. والمحسنون: يحتمل أن يكون المراد بهم الذين جاهدوا في الله وذكروا بالاسم الظاهر بدل الضمير، مدحاً لهم وثناء عليهم، ولبیان سبب هدايتهم، ويحتمل أن يكون المراد بهم أهل مقام الإحسان الذي بينه رسول الله ﷺ في حديث جبريل عليه السلام بقوله حين سألته عن الإحسان: «الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك». ومن كان من أهل هذا المقام كان الله تعالى معه بالمعونة والحفظ، إن دعاه أجابه، وإن أقسم عليه أبره، وإن سألته أعطاه. ومن كان بهذه المثابة لا تقع منه المعصية إلا على سبيل الهفوة والندور. كما يشير له حديث: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن»... إلخ. أي: مؤمن باطلاع الله تعالى، موقن بأنه يسمعه ويراه.

فظهر أن للجهاد في حياة الفرد والمجموع وصيانة الأرواح والأبدان
 آثاراً طيبة وثمرات كريمة، ولا يمكن لأمة من الأمم أو هيئة من الهيئات أو
 فرد من الأفراد أن يظفر بالعزة والكرامة والحياة الطيبة والسعادة في الدنيا
 والآخرة إلا بالجهاد. ومنذ تركته الأمم الإسلامية، واستلذت الراحة
 وأنفت من العمل، وانغمست في الشهوات واللذات، وهي ترسف في
 قيود المذلة وترزح تحت نير الاستبعاد. فهل آن لهم أن يستفيقوا من
 غفلتهم وينهضوا من كبوتهم ويخرجوا إلى ميادين الجهاد والعمل النافع
 لملتهم ولأوطانهم صفوفًا متساندين وإخوانًا متحابين، لا تنافر بينهم ولا
 تضاد، ولا أضغان في قلوبهم، ولا أحقاد. جاعلين رضا الله تعالى نصب
 أعينهم، وحقه مقدمًا على كل شيء، جازمين بأن السعادة والخير فيما
 يحبه ويرضاه، والشقاوة والضرير فيما يكرهه وينهى عنه، معتقدين بأن الله
 تعالى مستخلفهم في هذه الحياة الدنيا كما استخلف الذين من قبلهم
 ليلوهم أيهم أحسن عملاً، وينظر كيف يعملون.

وفقنا الله تعالى لما فيه الخير والسداد.



على سبيل المناسبة والاستطراد. واتفق أن كثيراً من الإخوان والمحبين قد شرفونا بالحضور في هذا المجلس، فلما سمعوا ما قلناه طاروا به فرحاً وسروراً، وأعجبوا به إعجاباً شديداً، حتى عني الكثير منهم بحفظه وتدوينه، وأبدى بعضهم إلينا اقتراحاً بتلخيصه لنشره وتعميم النفع به للمسلمين.

ولكننا ترددنا في تنفيذ هذا الاقتراح في الوقت المذكور غير أن المقترح ظل يردد اقتراحه، ويلح في طلب تنفيذه، ويلتمس له المبررات العديدة مما جعلنا نضطر إلى إجابته. وها قد آن أن نستعين **بالله** فنقول:

إن أحسن محامل هذه القصة أن **الله** سبحانه وتعالى كان قد أعلم نبيه **ﷺ** أن السيدة زينب **رضي الله عنها** ستكون من أزواجه الطاهرات، فلما شكاه له زيد **رضي الله عنه** وشاوره في طلاقها ومفارقتها قال له على سبيل النصيحة والتأديب المطلوب **﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ﴾** أي: أمسكها ولا تفارقها، واتق **الله** في شكواك منها، واتهامك لها بالتكبر والترفع عليك؛ لأنه كان قد شكها منها ذلك. وأخفى في نفسه **ﷺ** ما كان أعلمه **الله** به من أنه سيتزوجها. **والله** مبدي ذلك بطلاق زيد لها وتزويجها منه **ﷺ**، أي: مظهره في عالم الوجود.

وليس في هذا الإخفاء ما يُعاب عليه **ﷺ** أصلاً؛ بل هو غاية الفضل وعين الكمال؛ لأن ذلك إنما كان سرّاً بينه وبين خالقه جل وعلا، لم يأمر بإذاعته والتحدث به قبل أوامره، فكتمانه في الحقيقة قبل مجيء وقته هو الكمال الذي لا ينبغي غيره.

ونظير هذا ما وقع منه **ﷺ** في قصة السيدة عائشة **رضي الله عنها** حيث أتاه جبريل **عليه السلام** قبل أن يتزوجها بصورتها على «سرقه من حرير»، وقال له:

هذه زوجتك يا محمد. وقد عرفها رسول الله ﷺ حقاً، ولم يشك في أنها ستكون من أزواجه. ومع ذلك فقد ترك هذا الأمر سرّاً مكتوماً بينه وبين ربه، وقال تلك المقالة الحكيمة التي رواها الإمام البخاري في صحيحه وهي قوله ﷺ: «إن يكن من الله يمضه». يعني: إنه من الله ولا بد، فلا تركه إلى أن يجيء وقته الموعود، فلما جاء هذا الوقت أظهره الله تعالى، وتمّ ما أراد.

فمن أين يكون الإخفاء المذكور نقيصة أو يعد خيانة للوحي؟ بل لو أنه عليه الصلاة والسلام كان قد أذاع هذا السر المكنون والأمر المصون لكان ذلك هو الخروج عن دائرة الحزم والكمال.

وليس معنى الخشية في قوله تعالى: ﴿وَتَخْشَى النَّاسَ﴾ مجرد خوفه قاله المنافقين وطعنهم في ذاته الكريمة بقولهم: تزوج زوجة ابنه، أي: من تبناه - وإن ارتضاه كثير من المفسرين - بل المراد إنه ﷺ خشي ضرر الناس ووقوعهم في الهلاك بسبب إساءة ظنهم به، وبسط ألسنتهم فيه بالسوء، وكما وقع له ﷺ أنه كان واقفاً مرة مع زوجته صفية ليلاً، فمر عليه رجلان من أصحابه، فلما أبصراه واقفاً معها أسرعوا في المشي، فقال عليه الصلاة والسلام: «على رسلكما؛ إنها صفية بنت حيي»، فقالا: سبحان الله، أو نظن بك سوءاً يا رسول الله؟ فقال: «إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم، وقد خشيت أن يقذف في قلوبكما شرّاً».

هذا هو المعقول اللائق بعظيم منزلته ﷺ، وإلا فمجرد الخوف من قاله الناس وخشية الطعن منهم مما يجب أن ينزه عنه مقام النبوة الأسمى، فإنه إنما ينشأ عن حب المحمدة والثناء والحرص على الجاه عند الناس

وحسن الأحداث بينهم. وهذا مما يترفع عنه آحاد الأتقياء فضلاً عن سيد الأنبياء. وهذه الخشية التي وقعت منه صلى الله عليه وسلم إنما هي من أخلاقه الثابتة وأوصافه اللازمة في جميع أحواله كما قال تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسِكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ (الكهف: ٦).

ثم لما انتهت مصلحة الإخفاء بقضاء الله تعالى له صلى الله عليه وسلم بزواج زينب وإظهار ذلك بالفعل، وإنزال الوحي العام به نسخاً لما كانت عليه الجاهلية من تحريم أزواج الأدعياء، كانت إذاعة هذا الأمر وتبليغه للأمة مراعاة للمصلحة العامة أهم وأولى؛ بل لم يكن ثمة مندوحة عن ذلك تنفيذاً لأمر الله تعالى العليم بمصالح العباد.

وعلى ذلك فليست قصة زينب المذكورة مسوقة مساق العتاب له صلى الله عليه وسلم كما توهمه المفسرون، وإنما سبقت في الحقيقة لبيان كماله وحزمه عليه الصلاة والسلام، وشدة شففته على الناس وحرصه على سلامتهم من الأذى، كما يؤمى إليه قوله تعالى قبل هذه القصة: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾. فإن إعطاء النبي صلى الله عليه وسلم هذا المنصب العظيم، وإحلاله هذه المنزلة الرفيعة التي جعلت رأيه فوق رأي الجميع، بحيث لا يكون لمؤمن ولا مؤمنة الخيرة في شيء ما بعد قضائه ورأيه عليه الصلاة والسلام، يدل دلالة ظاهرة على أن هذه القصة - وهي قصة زينب المذكورة - إنما ذكرت كالتعليل لاستحقاقه صلى الله عليه وسلم ما ذكر، فلا بد حينئذ أن يكون مضمونها مدحاً له صلى الله عليه وسلم، وتنزيهاً له عن جميع الأغراض والحظوظ النفسانية، فما قيل من إنه صلى الله عليه وسلم أبصرها فتعلق قلبه بها وأخفاه، فهو قول سامج - كما قال بعض العلماء - لا يلتفت إليه وإن جلّ ناقلوه،

فإن أدنى الأولياء لا يصدر عنه مثل هذا، وكذلك الاعتذار عنه بأن ميل القلب غير مقدور عنه، فإنه أيضاً مما يجب صيانة النبي ﷺ عنه، ويرد هذا القيل إن الله سبحانه وتعالى لم يبدئه، وإنما أبدى نكاحه إياها نسخاً لما كانت عليه الجاهلية كما تقدم.

وقد يقول قائل: فما تصنع بقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ﴾ فإنه يدل على معاتبة النبي ﷺ بأنه خشي الناس ولم يخش الله الأحق بالخشية؟ قلنا: كلا؛ بل المعنى والله أحق أن تخشاه، أي: جدير بأن تخشاه كما فعلت يامحمد، وذلك لأن خشية ضرر الناس، وتوقي هلاكهم الذي وقع منه ﷺ على ما سبق، إنما نشأ من مراقبته لله تعالى، وقيامه بحق الرعاية التي جعلها الله تعالى له عليهم. فهو في الواقع إنما خشي الله في الناس فجاء قوله عز وجل: ﴿وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ﴾ تقريراً له على ما فعل، وإخباراً بأنه تعالى جدير بأن يخشاه مثلك يامحمد في عباده بأن يقيهم أسباب الغدر والهلاك، ويحرص على هدايتهم وسعادتهم في الدارين.

ويستفاد من هذه القصة علاوة على ما تقدم أنه ينبغي للخاصة إخفاء الأمور الدقيقة عن العامة، وعدم إطلاعهم إلا على ما فيه مصلحتهم فحسب.

هذا، وأما قوله جل ذكره: ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ﴾ فلا ندري كيف ساغ لجماعة من المفسرين أن يصرحوا بأن هذا تعريض به ﷺ؟ أي: إشارة إلى أنه لم يقم بواجب

التبليغ كما ينبغي، ولم يفرد ^{الله} تعالى بالخشية كما هو دأب إخوانه المرسلين قبله؟ وهذا أمر عجيب بعدما انعقد عليه الإجماع القاطع من أفضليته ^{عليه السلام} على الكل، وتفوقه عليهم في جميع خصال الخير وصفات الكمال. وليت شعري ما الذي أبقوه له ^{عليه السلام} من الشرف والفضل بعدما وصموه بتلك الوصمة الشنيعة، وجردوه من هذه الخشية التي عليها مدار الفضل كله؟ وليتهم إذ لم يوفقوا لفهم هذه الآية الكريمة قد وقفوا عند حدهم، وفوضوا العلم فيها لعلام الغيوب، ولم يتهاجموا على مقام العصمة المنيع بما تنفر عنه القلوب وتمجه الأسماع، والذي يظهر لنا من هذه الآية الكريمة أنها على عكس ما فهموا. لم تسق إلا للدلالة على أن جميع المرسلين الذين منهم - بل سيدهم وأفضلهم على الإطلاق جملة وتفصيلاً - النبي ^{عليه السلام} لا ينبغي لهم، ولم يقع منهم قط كتمان شيء مما أمروا بتبليغه للخلق كما لم يحصل منهم خشية لغيره جلّ وعلا في حال من الأحوال .

ولاشك في أن هذا برهان قاطع على أن خشيته ^{عليه السلام} للناس لم تكن إلا خشية لله تعالى فيهم على ما أسلفنا.

فكيف أنهم - رحمهم ^{الله} - لم يفتنوا إلى هذه النقطة البليغة والاحتراس البديع حتى أخذوا يتقولون على صاحب الشرع صلوات ^{الله} وسلامه عليه بما لا يرتضونه لأنفسهم. فإننا لله وإنا إليه راجعون، ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ (آل عمران: ٨) .



حول حجاب المرأة في الإسلام

ورد إلينا خطاب مضمونه بعد الديباجة.

قرأت بمجلة «الإسلام» مقال فضيلتكم عن قصة أم المؤمنين السيدة زينب بنت جحش ^{رضي الله عنها}. ونقدم لكم مزيد الشكر على ما أظهرتموه من البيان الشافي وفقكم ^{الله} إلى ما فيه رضاه. وقد ورد ضمن هذا المقال أن النبي ^{صلى الله عليه وسلم} كان واقفاً مع زوجته صفية ليلاً فمر عليه رجلان من أصحابه... إلخ.

وكان بودي أن تستمر في هذا البيان موضحاً لنا الموقع الذي كان النبي ^{صلى الله عليه وسلم} واقفاً فيه حتى نستتير. فأتعشم أن تتكرموا بإفادتنا عن ذلك البيان، وهل نساء النبي ^{صلى الله عليه وسلم} يخرجن من منازلهن؟

وقد أردنا بمناسبة هذا الخطاب أن ندلي بالكلمة الآتية على صفحات «الإسلام الغراء» ليتبين منها رأينا في موضوع: حجاب المرأة في الإسلام: أو خروج النساء من منازلهن وبخاصة نساء النبي ^{صلى الله عليه وسلم}. وقد تعرض الكتاب لهذا الموضوع كثيراً، وأطالوا فيه الأخذ والرد وقليل منهم من أصاب كبد الحقيقة فيه. وأغلب الظن أن أكثر الذين تصدوا للكتابة في هذا الموضوع الديني الخطير لم يعنوا ببحثه من جميع نواحيه؛ بل خاض بعضهم فيه على غير بينة من العلم ولا أساس من النظر والعقل، والبعض الآخر كتب فيه متأثراً بعوامل شخصية أو اعتبارات جزئية على

خلاف ما هو الشأن في المسائل التشريعية العامة التي ينظر الشارع فيها إلى المجموع لا إلى الأفراد، ويصب حكمه فيها على الغالب، وإن تخلفت علة الحكم في بعض الأحيان.

وها نحن نقول كلمتنا بتوفيق **الله** تعالى وهو المستعان:

خروج النساء من منازلهن:

لا ريب في أن الدين الإسلامي أباح للمرأة في الجملة الخروج من منزلها لأماكن العبادات وغيرها مما تمس إليه الحاجة وتدعو إليه الضرورة متى أمن جانب الفتنة في ذلك، ولم يترتب عليه إخلال بالآداب التي ذكرها **الله** تعالى في كتابه العزيز، أو نص عليها رسول **الله** ﷺ في سنته البيضاء، كما في قوله تعالى: ﴿وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءَ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتَوْبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (النور: ٣١)، وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لَأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذِينَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ (الأحزاب: ٥٩)، وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول **الله** ﷺ: «أَيُّمَا امْرَأَةٍ أَصَابَتْ بِخَوْرًا فَلَا تَشْهَدْ مَعَنَا الْعِشَاءَ

الآخرة». وفي رواية: «إذا شهدت إحداكن المسجد فلا تمس طيباً». وروى أبو داود عن عائشة رضي الله عنها أن أسماء بنت أبي بكر دخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعليها ثياب رقاق فأعرض عنها، وقال: «يا أسماء، إن المرأة إذا بلغت المحيض لم يصلح أن يرى منها إلا هذا وهذا، وأشار إلى وجهه وكفيه». فللمرأة ما دامت في حدود هذه الآداب أن تخرج من منزلها لقضاء حوائجها أو لزيارة أهلها، ولتعلم ما يلزمها من أحكام دينها وضرورات حياتها. هكذا كان حال أمهات المؤمنين ونساء السلف الصالح. وقد كان البعض منهن يساعدن أزواجهن في أمور معاشهم، من سقي مواشيهم وعلف دوابهم، وكن يخرجن معهم في الغزوات لمداواة الجرحى، وإصلاح بعض شئونهم من غير مباشرة لمحظور، أو نظر لممنوع. وكن على جانب عظيم من العلم والتفقه في الدين، حتى لقد كان أكابر الصحابة يرجعون إلى السيدة عائشة رضي الله عنها في كثير من المشكلات ويعولون عليها في مهمات الدين، وقالوا في شأنها: «ما أشكل علينا أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم شيء إلا وجدنا عند عائشة فيه علماً»، وقد مدح رسول الله صلى الله عليه وسلم نساء الأنصار؛ إذ كن يأتينه ليسألن عن أحكام دينهن بقوله: نعم نساء الأنصار؛ لم يمنعهن الحياء أن يتفقهن في الدين. وعن ابن عمر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ائذنوا للنساء بالليل إلى المساجد». فقال ابن له: «إذن يتخذنه دغلاً - أي: ذريعة إلى الفساد - فضرب في صدره وقال: أحدثك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وتقول: لا».

وكتب التاريخ مشحونة بتراجم كثيرة من النساء المحدثات ومن كان لهن فضل عظيم وأثر لا ينكر في خدمة العلم والدين... فمن الظلم وعدم

الإنصاف أن يحاول محاول بعد ذلك نسبة هذه الأمية الفاشية والجهل الضارب بين نساء المسلمين اليوم إلى الدين، والدين منه براء، وكيف وقد قال رسول الله ﷺ: «طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة».

لم يحظر الدين على المرأة إذن الخروج من منزلها مطلقاً، ولم يحرم عليها الثقافة والعلم، وإنما حرم الدين الفواحش ما ظهر منها وما بطن. حرم على النساء هذه العادات السيئة والتبرج المقوت، حرم عليهن الخروج من منازلهن بلا ضرورة؛ بل للتسكع في الشوارع والطرقات العامة يتعرضن لطيش الفتيان ونزق الشبان، أو يذهبن إلى مواضع اللهو والفساد مستعطرات متبرجات. وقد روى النسائي وابن خزيمة وابن حبان: «أما امرأة استعطرت فمرت على قوم ليجدوا ريحها فهي زانية وكل عين زانية»، وفي مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «صنفان من أهل النار لم أرهما، قوم معهم سياط كأذناب البقر يضربون بها الناس، ونساء كاسيات عاريات مميلات مائلات، رءوسهن كأسنمة البخت المائلة، لا يدخلن الجنة ولا يجدن ريحها، وإن ريحها ليوجد من مسيرة كذا وكذا».

ومن هنا يتضح جلياً أن الحق في هذا الموضوع بين ما عليه جماعة المنتطعين المتشددین من إهمال المرأة إهمالاً كلياً، وعدم الاعتناء بتربيتها وتعليمها وحبسها في عقر دارها بحيث لا تخرج لضرورة ولا لغير ضرورة، ولا يراها محرم ولا غير محرم، فإن هذا بلا شك غلو فاحش وغيره ممقوتة وظلم للمرأة مبین، وبين ما يدعو إليه دعاة التفرنج والسفور من وجوب مساواة المرأة للرجل في كل شيء، ومشاركتها له في أعماله الخارجية بحيث

تكون مهندساً وقاضياً ونائباً... إلخ غير مكترئين بوظيفتها المنزلية، ولا عابئين بما فرضه الشارع الحكيم من حدود وواجبات، فإن هذه دعوة خاطئة وتطرف شديد واعتداء ظاهر على حرمة الأخلاق والآداب. ﴿وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا﴾ (الطلاق: ١).

نساء النبي صلى الله عليه وسلم:

وقد خص الله تعالى نساء النبي ﷺ من باب الغيرة عليهن والمبالغة في صيانتهم بما هو أبلغ من ذلك، حيث لم يبح لنا النظر إلى شيء من وجوههن وأكفهن لشهادة أو غيرها ولو مع أمن الفتنة، وأوجب على من خاطبهن من المؤمنين أو سألهن شيئاً أن يسألن من وراء حجاب - وهو الستر الحائل بين المتخاطبين - كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ﴾ (الأحزاب: ٥٣). روي أن عمر رضي الله عنه قال: يا رسول الله، يدخل عليك البار والفاجر - أي: العالم بعظيم قدرك وحرمة أهلك وغير العالم بذلك - فلو أمرت أمهات المؤمنين بالحجاب، فنزلت. وفي صحيح مسلم عن عائشة رضي الله عنها أن أزواج النبي ﷺ كن يخرجن بالليل إذا تبرزن إلى المناصب - وهو صعيد أفيح - وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول لرسول الله ﷺ: أحجب نساءك، فلم يكن رسول الله ﷺ يفعل، فخرجت سودة بنت زمعة زوج النبي ﷺ ليلة من الليالي عشاء، وكانت امرأة طويلة فناداها عمر: ألا قد عرفناك يا سودة، حرصاً على أن ينزل الحجاب، قالت عائشة: فأنزل الله تعالى الحجاب، ومن ثم كن رضوان الله عليهن إذا خرجن سترن أشخاصهن، وإذا قعدن للناس جلسن من وراء حجاب مبالغة في التحفظ والتصون.

وهذا في الحقيقة من مزيد اعتناء الحق - جلّ وعلا - بنساء حبيبه ﷺ ليدلنا على ما لهن من شرف الخصوصية والفضل على غيرهن كما قال تعالى: ﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ﴾ (الأحزاب: ٣٢)، وليربي في نفوسنا المهابة والاحترام لهن، حتى ننظر إليهن بعين التعظيم والتوقير، وحتى لا نأخذ من اعتباره تعالى لهن أمهات للمؤمنين ذريعة إلى التساهل في الخلوة بهن أو النظر إلى شيء من محاسنهن، كما هي العادة في معاملة الإنسان مع أمه.

وفي قوله جلّ ذكره في الآية السابقة: ﴿لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ﴾: إشارة إلى أن استحقاق أمهات المؤمنين لهذا الشرف العظيم، ليس مرجعه ذواتهن أو أصالة نسبهن، وإنما مرجعه إلى التقوى التي هي الرابطة والصلة الحقيقية بينهن وبينه عليه الصلاة والسلام، وفي ذلك من حثهن على ملازمة تقواه جلّ وعلا وإيثارهن لخدمة نبيه ﷺ، والمسارة في هواه ما لا يخفى. وأما بدون هذه التقوى فلا مزية ولا فضل لهن، ألا ترى أن امرأة نوح وامرأة لوط عليهما السلام لما لم تتقيا الله عز وجل لم يغنيا عنهما من الله شيئاً، وقيل لهما: ادخلا النار مع الداخلين.

حديث صفية رضي الله عنها:

وأما حديث صفية رضي الله عنها الذي أوماً إليه السائل في خطابه، فقد كنا أشرنا إليه في الكلمة التي كتبناها حول قصة أم المؤمنين السيدة زينب بنت جحش رضي الله عنها، ونصه كما في صحيح مسلم عن صفية قالت: كان النبي ﷺ معتكفاً فأتته أزوره ليلاً فحدثته ثم قمت لأنقلب فقام معي ليقلبنى - أي: يردني إلى منزلي - وكان مسكنها في دار أسامة بن زيد، فمر

رجلان من الأنصار، فلما رأيا النبي ﷺ أسرعَا، فقال النبي ﷺ :
«على رسلكما، إنها صفية بنت حيي»، فقالا: سبحان الله يا رسول الله،
قال: «إن الشيطان يجري من الإنسان مجرى الدم، وإني خشيت أن
يقذف في قلوبكما شرًا، أو قال شيئًا». وليس في هذا الحديث على ما
نعتقد ما ينافي فريضة الحجاب التي فرضها الله تعالى على أمهات
المؤمنين، فإن هذه الزيارة من السيدة صفية رضيها الله قد وقعت تحت ستار
الليل كما قالت: فأتيته أزوره ليلاً. فلا يلزم حيثئذ أن يكون قد ظهر منها
لا في حال ذهابها إليه ﷺ، ولا في حال وقوفها معه شيء مما لا يباح
النظر إليه.

وأما سؤال السائل عن الموقع الذي كان النبي ﷺ واقفاً فيه. فجوابه
في الرواية التي في صحيح البخاري ونصها: ثم قام النبي ﷺ معها يقلبها
حتى إذا بلغت باب المسجد عند أم سلمة مر رجلان من الأنصار... إلخ.

ويؤخذ من هذا الحديث الشريف جملة فوائد: منها: إن الإنسان لا
ينبغي له أن يأتمن غيره على محارمه وإن كان مأموناً. ومنها: إن الأجدر
بالمرأة المسلمة ألا يكون خروجها لضروراتها إلا ليلاً. ومنها: إنه ينبغي
للإنسان إذا كان واقفاً مع امرأته مثلاً ومر عليه غيره أن يخبره بذلك لئلا
يسيء الظن به. ومنها: إنه يتأكد خصوصاً على العلماء، ومن يقتدي بهم
التحرز عن مواضع الريب ومواطن الشكوك. ومنها: إن الإنسان مهما بلغ
من الصلاح والتقوى فإنه لا يسلم من نزغ الشيطان ووسوسته. نسأل الله
تعالى أن يرد عنا شره وأذاه إنه على ذلك قدير.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ (١٣)
 قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٤) إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ (١٥) قُلْ أَتَعْلَمُونَ اللَّهُ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١٦) يَمُنُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمْنُوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنْ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٧) إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿

صدق الله العظيم

[الحجرات: ١٣ - ١٨]

مسلك القرآن الكريم في تهذيب النفوس الإنسانية وتقويم الطباع البشرية مسلك واضح حكيم، لا يعتريه خلل ولا اضطراب، ولا شائبة فيه من الغموض والإبهام، ولا شيء منه يخرج عن مقتضى العقول السليمة والفطر المستقيمة، ولهذا كان بالغ الحجة قوي التأثير عند العرب الذين لم تتدنس عقولهم بسموم الإلحاد الحديثة، ولم تتلوث فطرهم

بفنون المدنية الكاذبة حتى رأيناه - في أيسر ما يمكن من الزمن - قد أسلس من طباعهم النافرة، وأخضع من شهواتهم الجامحة، وأبطل من نعراتهم الجاهلية ما لا يمكن لغير القرآن أن يحققه في أزمنة متطاولة وقرون عديدة، ولا غرو فهو كتاب المنطق والحكمة والعقل والقانون السماوي العام، الجامع لجميع الأدوية اللازمة وطرق العلاج الكافية لأمراض البشرية كلها إلى يوم القيامة ﴿ لا يأتیه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ﴾ (فصلت: ٤٢).

وتأمل هنا كيف أنه تعالى لما نهى المؤمنين عن سخرية بعضهم من بعض، وعن لمز أنفسهم وتنازهم بالألقاب، وأن يغتاب بعضهم بعضاً، بين في أولى هذه الآيات الكريمة التي معنا حقيقة السبب المقتضي لهذا النهي، وهو أنهم - علاوة على ما امتازوا به من شرف الإيمان الداعي إلى التحلي بالأخلاق الكريمة، والتخلي عن الأخلاق الذميمة كما أشار له تعالى بقوله فيما سبق: ﴿ بشئ الاسم الفسوق بعد الإيمان ﴾ (الحجرات: ١١) - أولاد ذكر

وأُنثى، معدنهم واحد، وأصلهم الذي ينتمون إليه جميعاً واحد، ليس منهم من هو مخلوق من جوهر نفيس، ومن هو ناشئ من معدن خسيس، كلهم من آدم وحواء - عليهما السلام - : أي: كلهم من التراب والطين، والحمأ المسنون، فلا موجب للفخر والعلو، ولا داعي للتكبر والعتو، ولا مبرر لأحد أن يسخر من أحد. مع أن المعول عليه في الحقيقة إنما هو نيل الكرامة عند الله تعالى، والفوز بما لديه من الثواب العظيم، والنعيم المقيم، وهذا لا يمكن الحصول عليه إلا بالتقوى التي مدارها على هضم النفس، وعدم احتقار الغير واكتساب الفضائل والآداب، ومن كلام ابن الرومي:

واعلم بأن الناس من طينة يصدق في الثلب لها الثالب
لولا علاج الناس أخلاقهم إذا لفاح الحمأ اللازب

هذا، وفي التكاليف الدينية ما يدعو إلى رسوخ ذلك المبدأ القويم:
مبدأ التواضع وعدم الاعتداد بغير التقوى من الأنساب وغيرها، حيث كلفنا
الله تعالى بالصلاة والخروج إلى المساجد خمس مرات في كل يوم وليلة،
وهناك يقف الحقير بجانب العظيم، والخادم تجاه المخدوم، والفقير بإزاء
الغني؛ بل ربما سبقه إلى الصف الأول، وهم يركعون معاً، ويسجدون معاً.
وفي السجود عبرة بالغة؛ إذ يضع الإنسان أشرف أعضائه وهو الوجه على
موطئ قدمه من التراب ليتذكر مبدأه وأصله، ويفرد **الله** -جل ذكره-
بالعظمة والكبرياء، كما أن في تكبيرة الإحرام وسائر تكبيرات الصلاة عظة
وأي عظة؛ إذ يقول الكل بلفظ واحد (**الله** أكبر) أي: أكبر من كل كبير،
وأعظم من كل عظيم؛ بل لا كبير ولا عظيم في الحقيقة سواه.

والكل دون **الله** إن حققته عدم على التفصيل والإجمال

ولهذا السر العظيم في الصلاة قال **عليه السلام**: «أرأيتم لو أن نهراً بباب أحدكم
يغتسل فيه كل يوم خمس مرات هل يبقى من درنه شيء؟ قالوا: لا يبقى من درنه
شيء. قال: فكذاك مثل الصلوات الخمس يحو **الله** بهن الخطايا» رواه الشيخان.

وقد ذكر العلماء لنزول قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ

ذَكَرٍ وَأُنْثَى﴾ ... إلخ جملة أسباب: منها: إنه لما كان يوم فتح مكة أمر النبي

عليه السلام بلالاً حتى علا ظهر الكعبة فأذن، فقال بعض الناس: هذا العبد الأسود

يؤذن على ظهر الكعبة. وقال بعضهم: أن يسخط **الله** هذا بغيره فنزل: ﴿يَا

أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ﴾ الآية، وقيل: أمر رسول **الله** **عليه السلام** بني بياضة أن

يزوجوا أبا هند امرأة منهم، فقالوا: يا رسول الله، أنزوج بناتنا موالينا؟ فأنزل الله تعالى الآية. قال الزهري: نزلت في أبي هند خاصة، قال: وكان أبو هند حجام النبي ﷺ. وقيل: نزلت في قيس ابن ثابت حين قال له رجل: أفسح لي، فوجد في نفسه من ذلك، وقال: إن ابن فلانة - كناية عن الاستخفاف والتحقير - يقول لي: أفسح لي. فقال رسول الله ﷺ: «من الذاكر فلانة؟» قال ثابت: أنا يا رسول الله. فقال الرسول ﷺ: «انظر في وجوه القوم». فنظر. فقال له الرسول: «ماذا رأيت؟» قال: رأيت أبيض وأسود وأحمر. فقال: «إنك لا تفضلهم إلا بالتقوى». ونزلت الآية. ولا مانع من حصول هذه الوقائع كلها، ولا محذور في تعدد أسباب النزول، وعلى كل فالآية جارة بذيلها على الجميع. قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ المراد: جميع بني آدم، وإن كان سبب النزول خاصاً لما تقرر عند العلماء أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ﴿إِنَّا﴾ بما لنا من العظمة والجلال ﴿خَلَقْنَاكُمْ﴾ أي: أوجدناكم وأنشأناكم من العدم بعد أن لم تكونوا شيئاً مذكوراً، فأنتم مخلوقون مربوبون لا يصح لكم التعاضم والتفاخر، ولا يليق منكم الخروج عن طور العبودية إلى حد المنازعة للربوبية، والمشاركة في أوصاف الألوهية ﴿مَنْ ذَكَرِ وَأُنْثَى﴾ هما آدم وحواء عليهما السلام؛ لأنهما أصل الجميع، وفي أول سورة النساء ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾ (النساء: ١) أي: خلقكم من نفس واحدة وهي نفس آدم ﷺ: خلقها أولاً، وخلق منها زوجها حواء بعد ذلك، وبشكم منهما رجالاً ونساءً فلا تنافي بين الآيتين الكريمتين، ويحتمل أن يكون المراد من قوله: ﴿إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى﴾

خلقنا كل واحد من ذكر وأنثى هما أبوه وأمه، وفيه دليل على أن الولد مخلوق من ماء الرجل وماء المرأة معاً. قال مجاهد ما خلق الله الولد إلا من نطفة الرجل والمرأة جميعاً، وذلك أن الله يقول: ﴿إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى﴾ والمعنى على الأول: يا أيها الناس إنا خلقناكم أي: أنشأناكم وفرعناكم جميعاً على اختلاف ألسنتكم وألوانكم، وتباين طبائعكم وأحوالكم، وتفاوتكم في الطول والقصر والنحافة والسمن... إلخ. من آدم وحواء عليهما السلام، فأنتم إخوة أولاد أب واحد وأم واحدة لا تفاوت بينكم ولا تفاضل في أصل خلقتكم، ولا محل لافتخار أحدكم على الآخر من هذه الناحية. وعلى الثاني: يا أيها الناس إنا خلقناكم كل واحد منكم من أب وأم على الكيفية المعلومة فليتأمل في مبدأ خلقه وتطوره في الأطوار المختلفة والأحوال العجيبة ليحمله ذلك على طرح الكبر والافتخار، والاعتراف بعظمة الواحد القهار، وما له عليه من منن سوابغ ونعم جزيلة

﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ (٥) خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ (٦) يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ﴾ (الطارق: ٥-٧)، ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ (١٢) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نَظْفَةً فِي قرارٍ مُكِينٍ (١٣) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَاهُ الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ (المؤمنون: ١٢-١٤). ولهذا تعين على الخلق مراعاة شكره تعالى وهو عبارة عن امتثال أوامره واجتناب نواهيه، وصرف نعمه فيما خلقت لأجله. وتأكد عليهم أن يحذروا بطشه ويخافوا عقابه، فإن من قدر على الإيجاد والإمداد بالنعم العظيمة فهو لاشك قادر على إثابة الطائع وتعذيب العاصي. ثم إذا فكر الإنسان في كيفية خلقه تبين له كيف أن الله تعالى حفظه

وهو في ظلمة الأحشاء حتى أجرى عليه رزقه من عرق الدم، وحفظه في ذلك المستودع حتى اشتدت أعضاؤه وقويت أركانه فأخرجه إلى رفقه وما يسره له من رزقه من غير سابقة عمل ولا تقدم ما يستوجب هذا الإفضال العميم والإنعام الجسيم. ﴿وجعلناكم﴾ بمقتضى المشيئة والحكمة ﴿شعوبا وقبائل﴾. الشعب رأس القبيلة، وأعلى طبقات النسب، ويليه القبيلة ثم العمارة ثم البطن ثم الفخذ ثم الفصيلة، وإنما اقتصر القرآن الكريم على ذكر الشعوب والقبائل مع أن ^{الله} تعالى جعل العمائر والبطون والأفخاذ والفصائل أيضاً؛ لأن التفاخر بالأنساب الذي سبقت هذه الآية للنهي عنه إنما يقع عادة بين القبائل والشعوب المختلفة ﴿لتعارفوا﴾ أي: خلقناكم من ذكر واحد وأنثى واحدة بثناكم منهنما، وفرعناكم عنهما كما تتفرع عن الشجرة أغصانها حتى كثرتم وصرتم شعوباً وقبائل ليعرف بعضكم بعضاً، ويعطف بعضكم على بعض بالبر والصلة والمودة والمحبة، فإن ذلك هو شأن الأخوة ومقتضى الانتساب لأصل واحد، أو يقال: إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً متميزة وقبائل متنوعة كما تنوعت أجزاء الأرض التي هي أصلكم الأول، وكما تنوع أجزاء البنيان وتفاوتت بالصلابة وغيرها. لأجل أن تتعارفوا وتتواصلوا فيما بينكم فلا يستطيل أحد على أحد، ولا يستصغر أحد شأن أحد، فإن كلاً محتاج إلى الآخر مضطراً إلى مساعدته ومعاونته؛ إذ الإنسان مدني بطبعه لا يمكنه أن يعيش وحده ولا يتأني له الاستقلال بنفسه والاستغناء عن غيره كما هو معلوم.

فالمقصود من خلق الناس من ذكر وأنثى وجعلهم شعوباً وقبائل، إنما هو التعارف والتواصل لا التناكر والتفاخر بالأنساب. قال رسول ^{الله} ﷺ: «تعلموا من أنسابكم ما تصلون به أرحامكم؛ فإن صلة الرحم محبة

في الأهل، مثرأة في المال، منسأة في الأثر». وقال عليه الصلاة والسلام: «أربع من الجاهلية لا تتركهن أمتي: الفخر بالأحساب، والطعن في الأنساب، والاستسقاء بالنجوم، والنياحة». وفي الحديث أيضاً: «ولينتهن قوم يفخرون بأبائهم أو ليكونن أهون على الله من الجعلان. فالافتخار بالأنساب والاعتزاز بالأباء والأجداد من عادات الجاهلية المذمومة، وقد حذرنا منها الشرع الشريف إلا في الحرب عند الرمي، ومقاتلة الكفار لما في ذلك من إظهار الهمة والشجاعة وإرهاب العدو، وقد وقع منه صلى الله عليه وسلم يوم حنين حيث قال: أنا النبي لا كذب، أنا ابن عبد المطلب.

ثم علل الحق سبحانه وتعالى النهي عن الافتخار بالأنساب المستفاد ضمناً من الكلام السابق بقوله: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ﴾ أي: أكثركم خيراً، وأرفعكم منزلة، وأعلاكم درجة ﴿عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ يعني: لا تفتخروا بالأنساب التي هي ليست من كسبكم ولم تحصلوا عليها بجدكم واجتهادكم، بل افتخروا - إن صح الفخر - بالتقوى التي عليها مدار كمال النفوس وتفاضل الأشخاص، وتفاوت المراتب عند الله تعالى لكونها من سعي الإنسان وكسبه. وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: ما تعدون الكرم وقد بين الله تعالى الكرم، وأكرمكم عند الله أتقاكم. وما تعدون الحسب؟ الحسب أفضلكم حسباً أحسنكم خلقاً. وعنه أيضاً أنه قال: لا أرى أحداً يعمل بهذه الآية ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى﴾ حتى بلغ ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ فيقول الرجل للرجل: أنا أكرم منك، فليس أحد أكرم من أحد إلا بالتقوى. وعن ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم طاف يوم الفتح على راحلته يستلم الأركان بمحجنه، فلما خرج لم يجد مناخاً،

فنزل على أيدي الرجال فخطبهم فحمد الله وأثنى عليه، وقال: الحمد لله
 الذي أذهب عنكم عيبة الجاهلية وتكبرها بآبائها، الناس رجالان: بر تقي
 كريم على الله، وفاجر شقي هين على الله، والناس بنو آدم، وخلق الله آدم
 من تراب. قال الله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى﴾ إلى
 قوله: ﴿خَبِيرٌ﴾ ثم قال: أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم. وعن أبي
 أمامة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله أذهب نخوة الجاهلية وتكبرها
 بآبائها، كلكم لآدم وحواء كطف الصاع بالصاع، وإن أكرمكم عند الله
 أتقاكم، فمن أتاكم ترضون دينه فزوجوه». وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي
 ﷺ قال: «إن الله يقول يوم القيامة أمرتكم فضيعتم ما عهدت إليكم
 ورفعتم أنسابكم، فاليوم أرفع نسبي - أي: الوصلة التي بيني وبين عبادي
 وهي التقوى - وأضع أنسابكم، أين المتقون؟ أين المتقون؟ إن أكرمكم عند
 الله أتقاكم». وعن سعيد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الناس كلهم
 بنو آدم، وآدم خلق من التراب، ولا فضل لعربي على عجمي ولا عجمي
 على عربي ولا أحمر على أبيض ولا أبيض على أحمر إلا بالتقوى». وعن
 عائشة رضي الله عنها قالت: «ما أعجب رسول الله ﷺ شيء من الدنيا، ولا أعجبه
 قط إلا ذو تقوى». والأحاديث في هذا الباب كثيرة جداً. وكلها تدور حول
 هذه الآية الكريمة. وتنص في صراحة ووضوح على أنه لا عبرة بمال ولا جاه
 ولا نسب ولا جمال ظاهري ولا غير ذلك من الأمور التي تفنى وتزول؛ بل
 ولا عبرة بالعلم لذاته ما لم يكن داعياً إلى التقوى وباعثاً على الزهد في
 الدنيا. وفي هذا أوضح دليل وأنصح برهان على أن الدين الإسلامي دين
 أفعال لا دين أقوال. دين جهاد وعمل لا فتور وتوان وكسل. هو دين

الكسب والجد والهمة والنشاط والاعتماد على النفس، دين يزن المرء بأخلاقه الفاضلة وأعماله الصالحة وآثاره الطيبة النافعة، دين يمقت المتشبه بالأوهام الكاذبة والخرافات السخيفة ويعد المفتخر بنسبه كالمتحلي بزينة غيره. فليعتبر بذلك أبناء الإسلام المفتخرون بشرف آبائهم وعلو أنسابهم، المعتزون برفعة مناصبهم وكثرة أموالهم، وليعلموا أن ذلك كله لا يغني عنهم من الله شيئاً. فقد قال صلوات الله عليه لسيدة النساء وأصل دوحة الشرف والمجد، بضعة رسول الله صلوات الله عليه السيدة فاطمة الزهراء رضي الله عنها : «يا فاطمة ابنة محمد، اعملي، فإني لا أغني عنك من الله شيئاً». وجاء عنه عليه الصلاة والسلام: «من أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه». نعم، إذا انضم شرف النسب إلى شرف التقوى كان نوراً على نور، وجمالاً على جمال. فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سئل رسول الله صلوات الله عليه : أي: الناس أكرم؟ قال: أكرمهم عند الله أتقاهم. قالوا: ليس عن هذا نسألك...، قال: فأكرم الناس يوسف نبي الله، ابن نبي الله، ابن نبي الله، ابن خليل الله. قالوا: ليس عن هذا نسألك. قال: فعن معادن العرب تسألون؟ قالوا: نعم. قال: خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا، يعني عرفوا الدين وما يجب عليهم وعملوا بذلك، وهو محصل معنى التقوى؛ لأنها عبارة عن امثال المأمورات واجتناب المنهيات، وبعبارة أخرى هي القيام بحق الخالق جلّ وعلا، وحق المخلوق من ولد وأهل وأصحاب وجيران وغيرهم. فالتقوى إذن العمل للدنيا والآخرة معاً، وعدم الإهمال في شيء من الحقوق والواجبات على اختلاف أنواعها التي منها؛ بل من أهمها السعي على العيال واكتساب الحلال، وألا يكون عالة على الناس يتكففهم ويطمع فيما بأيديهم فإن في الطمع إفساد الدين وإذهاب نور اليقين. فعن سيدي أبي العباس المرسى رضي الله عنه أنه قال:

كنت في ابتداء أمري بالإسكندرية فجئت إلى بعض من يعرفني فاشتريت منه حاجة بنصف درهم، فقلت في نفسي: لعله لا يأخذه مني، فهتف به هاتف: السلامة في الدين بترك الطمع في المخلوقين. وأصل التقوى من الوقاية، فتقوى العبد أن يجعل بينه وبين ما يخشاه من غضب **الله** تعالى ونحوه وقاية بامتنال الأوامر واجتناب النواهي حسب الطاقة البشرية. وأساسها الثقة **بالله** تعالى والاطمئنان إليه، والتسليم لأحكامه والرضاء بقضائه وقدره من غير اعتراض ولا تعيس. ومن لم تكن تقواه مبنية على هذا الأساس المتين فهو على شفا جرف هار لا نتيجة لأعماله، ولا حظ له منها إلا مجرد التعب والعناء.

وللتقوى مراتب كثيرة ودرجات متفاوتة: أقلها وأدناها اتقاء الشرك بمجرد الإيمان، يليها أن يكون مع الإيمان مؤدياً للفرائض وحافظاً لجوارحه من المخالفات. وأرقى من هذه أن يكون مع ذلك حافظاً لقلبه من الهفوات والخطرات، رافعاً لهمته عن ملاحظة الأغيار والتعلق بسوى الواحد القهار **﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾** أي: عليم بكم وبجميع أعمالكم وأحوالكم كلها ما ظهر منها وما بطن، خبير بدقائق شئونكم فلا يخفى عليه شيء من هواجسكم وخواطركم ونواياكم، فيعلم المخلص من المنافق، والموقن من المتردد، والصادق من الكاذب، ويجازيكم على ذلك إن خيراً فخير، وإن شراً فشر. وفي هذا تذييل من الحث على تنقية الأعمال وتصفية السرائر ما لا يخفى.

وقد قدم نفر من بني أسد المدينة في سنة مجدبة فأظهروا الإسلام، ولم يكونوا مؤمنين حقيقة. وأفسدوا طرق المدينة بالعدرات، وأغلوا أسعارها وكانوا يغدون ويروحون إلى رسول **الله** **ﷺ** وهم يقولون:

أنتك العرب بأنفسها على ظهور رواحليها ونحن جئناك بالأطفال
والعيال والذراري، ولم نقاتلك كما قاتلك بنو فلان وبنو فلان، يمينون
على رسول الله ﷺ ويريدون الصدقة، ويقولون: أعطنا. فنزل قول الله
تعالى فيهم: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا﴾... إلخ. قال قتادة: لعمرى ما عمت
هذه الآية الأعراب، إن من الأعراب لمن يؤمن بالله واليوم الآخر، ولكن
إنما أنزلت في حي من أحياء العرب منوا بالإسلام على النبي ﷺ،
وقالوا: أسلمنا ولم نقاتلك كما قاتلك بنو فلان، فقال الله: لم تؤمنوا
ولكن قولوا: أسلمنا ولما يدخل الإيمان في قلوبكم. ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ﴾
هم النفر المذكورون من بني أسد قالوا: ﴿آمَنَّا﴾ أي: صدقنا بالله تعالى
وكتبه ورسله واليوم الآخر، ووثقت قلوبنا بذلك ثقة تامة واطمأنت إليه.
قالوا ذلك كذباً وبهتاناً خوفاً من القتل، وطمعاً في الدنيا. ولهذا قال الله
تعالى: ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد- عليه الصلاة والسلام- ردّاً عليهم وذمّاً
وتبكيّاً لهم ونقضاً لدعواهم الباطلة ﴿لَمْ تَوْمِنُوا﴾ حقيقة بقلوبكم فلا
تقولوا آمنا ﴿وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾ أي: استسلمنا وانقدنا انقياداً ظاهرياً
فقط من غير مواطاة القلب وإذعانه ورضاه وتسليمه، فالمراد بالإيمان هنا:
تصديق القلب وثقته وطمأنينته، وبالإسلام الاستسلام ظاهراً باللسان
والجوارح، وقد يطلقان في الشرع على معنى واحد ﴿فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا
مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٣٥)﴾ فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين ﴿(الذاريات: ٣٥، ٣٦)﴾، ولم يكن بالاتفاق في تلك القرية إلا أهل بيت واحد وهم سيدنا
لسوط عليه السلام وبناته. وقد استدل بالآية الأولى من يقول بتغاير الإسلام
والإيمان. وبالثانية من يقول بترادفهما. والذي عليه المحققون أن الإسلام

والإيمان متغايران في المفهوم؛ إذ الإيمان هو التصديق القلبي والإسلام هو الانقياد الظاهري، ولكنهما بحسب اعتبار الشرع متحدان في المقصد بحيث لا يوجد مسلم شرعاً إسلاماً حقيقياً إلا وهو مؤمن وبالعكس. وفي الكتب الكلامية كلام متشعب في هذا المقام لا داعي إلى الإطالة بسرده فإن خلاصته ما ذكرنا ﴿ **وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ** ﴾ أي: لم يدخل الإيمان إلى الآن في قلوبكم وإن كان متوقع الحصول كما هو الشأن في منفي لما. فهذه بشارة لهم بأنهم سيؤمنون حقيقة، فقد صار إسلامهم الظاهري سلماً لإسلامهم الباطني كقول الصوفية: الرياء قنطرة الإخلاص.

ولعل هذا من الأسباب التي دعت النبي ﷺ إلى عدم قتل المنافقين في زمانه؛ إذ كان يرجو أن يكون ترددهم على مجلسه الشريف واختلاطهم بالمسلمين وإتيانهم بشعائر الإسلام الظاهرة سبيلاً إلى هدايتهم وإصلاح فساد قلوبهم. ومن هنا رأى كثير من المتأخرين من أهل الطريق - نظراً لفساد الزمن وكثرة الشرور وقلة الصادقين من المريدين - أن يفتحوا أبواب الإرشاد، ويمدوا يد النصيحة لكل من ورد إليهم وحاول منهم الأخذ بيده ولو كان من أهل المعاصي والفتون، لعله بصحبته ومخالطتهم وحضور مجالسهم والاستماع إلى نصائحهم والاجتماع بالمخلصين من أتباعهم يفيق من سكراته، ويتطهر من جنابة غفلاته ولو بعد حين، فيتعرض لنفحات الحق - جلّ وعلا - ويفتح عليه بمثل ما فتح عليهم، فإن من جالس العطار طاب بطييه وقلّ من يكون متصفاً بحالة إلا وينعكس على جليسه منها شيء، والغرض تقليل الشر ما أمكن، ألا ترى أن ترك الصلاة مثلاً مع شرب الخمر أقبح من شرب الخمر وحده؟ فإذا جاء للمتصدي للإرشاد شخص مرتكب لجملة من المعاصي وكان يأخذ

العهد عليه يمكن بإذن **الله** تعالى أن يصرفه عن البعض دون البعض الآخر، كان أخذ العهد متعيناً في هذه الحالة، وقد نص الفقهاء على أنه كما تجب إزالة النجاسة بالكلية يجب تقليلها أيضاً، كما لو كانت بكمية وهو لا يجد من الماء إلا ما يزيل به نجاسة أحدهما فقط فإنه يجب عليه ذلك. والعبرة بحسن المقاصد والأعمال بالنيات **﴿وَأِنْ تَطِيعُوا اللَّهَ﴾**

بالإيمان به وإقامة شرائعه والإخلاص له، والصدق معه في جميع الحالات **﴿وَرَسُولُهُ﴾** بمحبته، والافتداء به، والعمل بسنته، والتخلق بأخلاقه الكريمة في السر والعلن **﴿لَا يَلْتَكُم مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا﴾** أي: لا يظلمكم

ولا ينقصكم من ثواب أعمالكم سواء أكانت صادرة من القلوب أم من الجوارح شيئاً قليلاً فضلاً عن الكثير؛ لأن **الله** تعالى لا يظلم مثقال ذرة، وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيماً. وفي قوله تعالى: **﴿وَأِنْ تَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلْتَكُم﴾** .. إلخ. إشارة إلى أن شرط الثواب

على العمل أن يكون موافقاً للشرع، ناشئاً عن قصد الطاعة والامتثال لله تعالى ولرسوله **ﷺ** كقوله عز وجل: **﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعِيهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعِيهِمْ مَّشْكُورًا﴾** (الإسراء: ١٩) حيث قال:

﴿وَسَعَىٰ لَهَا سَعِيهَا﴾ أي: سعيها المطلوب المعول عليه شرعاً بخلاف ما إذا كان قصده من العمل إرضاء نفسه وموافقة هواه، فإنه مردود غير مقبول. **﴿وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تَكُنْ صُدُورُهُمْ وَمَا يَعْلَنُونَ﴾** (القصص: ٦٩)،

﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ (الكهف: ١١٠)، **﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ﴾** شأنه المغفرة والتجاوز عما فرط

من المسيئين إذا أقبلوا وأنابوا **﴿رَحِيمٌ﴾** كثير الرحمة عظيم التفضل

على عباده الذين يمتثلون أوامرهم ويجتنبون نواهيه كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ (الأعراف: ١٥٦) فلا شك في سعة رحمة الله تعالى، لكنه بمقتضى الحكمة قد كتبها لمن أسلم وجهه إليه ورغب فيما لديه. ثم بين الحق تعالى أوصاف المؤمنين الحقيقيين لتكون ميزاناً لهؤلاء المدعين وغيرهم، يزنون به أنفسهم ويعرفون قيمة ما هم عليه فقال: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ﴾ حقيقة، الصادقون في إيمانهم هم ﴿الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا﴾ أي: لم يقع منهم شك ولا ريب ولا تردد فيما آمنوا به من الأوامر والنواهي والوعد والوعيد. ولا اتهام لمن صدقوه في عموم الأوقات والحالات ﴿وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: في طاعته ومرضاته فيشمل جميع العبادات البدنية والمالية من الغزو بالنفس لإعلاء كلمة الله تعالى، ومدافعة أهل الزيغ والضلال باللسان واليد كتابة وغيرها، وإزالة الضرر عن المسلمين ودفع الحيف عنهم، وبالمال من إطعام الفقراء والمساكين وغير ذلك من بناء المدارس الدينية والمشاريع الخيرية والمساجد للصلاة والذكر، ويدخل إخراج الزكاة دخولاً أولياً ﴿أُولَئِكَ﴾ الموصوفون بتلك الصفات ﴿هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ دون سواهم في دعوى الإيمان. روي أنه لما نزلت هذه الآية جاءوا إلى النبي ﷺ وحلفوا أنهم مؤمنون مخلصون فأنزل الله تعالى لتكذيبهم قوله: ﴿قُلْ أَتَعْلَمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ﴾... إلخ وهذه مكابرة منهم ومغالطة شنيعة، ولهذا شنع الله تعالى في الرد عليهم، أي: ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد أتعلمون الله بدِينكم؟ أي: أتخبرونه وتشعرونه بما أنتم عليه من الدين والإيمان؟

﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: أليق منكم ذلك والحال أن الله تعالى يعلم جميع ما في السماوات وما في الأرض من ملك وإنس وجن وحيوان ونبات وغير ذلك ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ حَسِيءٌ﴾ أو معنوي، ظاهر أو خفي ﴿عَلِيمٌ﴾ فقد خلق الإنسان ويعلم ما توسوس به نفسه وهو أقرب إليه من حبل الوريد، فلا يهجنس في نفسه هاجس ولا يخطر خاطر، ولا يستقر اعتقاد ولا يحصل شك ولا يقين إلا وهو يعلمه ويجازي عليه.

﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا﴾ أي: يعدون إسلامهم من غير قتال منه عليك ونعمة واصمة إليك، بخلاف غيرهم من الأعراب الذين لم يسلموا إلا بعد القتال وتحت ظلال السيوف. وهذه إشارة إلى قولهم السابق: أتتك العرب بأنفسها على ظهور رواحلها ونحن جئناك بالأطفال والعيال والذراري ولم نقاتلك كما قاتلك بنو فلان وبنو فلان. ولا محل لهذا المنهم - حتى ولو فرضنا صدقهم فيما ادعوه من الإيمان - لأن فائدته راجعة إليهم وعائدة عليهم وحدهم، وليس على النبي ﷺ ضرر إذا لم يؤمنوا هم أو غيرهم؛ لأنه إنما بعث عليه الصلاة والسلام مرشداً ومبلغاً وهادياً إلى الله تعالى بمعنى أنه داع ودال عليه لا موصل الهداية إلى القلوب. ولهذا قال الله تعالى: ﴿قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمُ﴾ أي: لا تمنوا علي بهذا الذي صدر منكم وهو الاستسلام الظاهري الذي لا خير ولا غناء فيه ولا يستحق الامتنان ﴿بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ﴾ أي: بل المنة لله تعالى عليكم بأن هداكم ووفقكم للإيمان أنه أوصل نور الإيمان لقلوبكم ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ في دعواكم الإيمان. ثم أكد سبحانه وتعالى شمول علمه

لجميع الكائنات فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: ما غاب فيهما من المحسوسات وغيرها فضلاً عما ظهر، وتسميته غيباً إنما هو بالنسبة لنا فقط وإلا **فَاللَّهُ** تعالى لا يغيب عنه شيء ولا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء. وقد ذكر بعض العلماء أن العوالم أربعة: عالم الملك وهو ما ظهر لنا، وعالم الملكوت وهو ما غاب عنا من المحسوسات كالجنة والنار والعرش والكرسي، وعالم الجبروت وهو عالم الأسرار والعلوم والمعارف، وعالم العزة وهو ما اختص **الله** به من علم ذاته وصفاته ﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ أي: مطلع على جميع ما تعملونه في سركم وعلنكم قولاً كان أو فعلاً أو اعتقاداً فلا يخفى عليه من أمركم شيء وسيجازيكم عليه بما تستحقون ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (٨٨) إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ (الشعراء: ٨٨، ٨٩).



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ (١) لَيْسَ لَوْقَعَتِهَا كَاذِبَةٌ (٢) خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ (٣) إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًا (٤) وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا (٥) فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًّا (٦) وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً (٧) فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ (٨) وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ (٩) وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ﴾

صدق الله العظيم

[من سورة الواقعة : ١ - ٩]

سورة الواقعة هذه سورة عظيمة الشأن جليلة القدر. قال مسروق رضي الله عنه من أراد أن يعلم نبأ الأولين والآخرين، ونبأ أهل الجنة ونبأ أهل النار، ونبأ أهل الدنيا ونبأ أهل الآخرة، فليقرأ سورة الواقعة. وقد سماها رسول الله صلى الله عليه وسلم سورة الغنى وحض على قراءتها وتعليمها، فعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «سورة الواقعة سورة الغنى فاقرأوها وعلموها أولادكم». وقد قيل: إن فيها اسم الله الأعظم. وعن بعض الصالحين أن من قرأها أربعين يوماً في كل يوم إحدى وأربعين مرة رزقه الله من حيث لا يحتسب، ومن قرأها إحدى وأربعين مرة في مجلس واحد وهو متوضئ ومستقبل القبلة قضيت حاجته بإذن الله تعالى. وذكر ابن عبد البر وغيره أن عثمان دخل على ابن مسعود رضي الله عنه في مرضه الذي مات منه، فقال له: ما

تشتكي؟ قال: ذنوبي، قال: فما تشتهي؟ قال: رحمة ربي. قال: أفلا ندعو لك طبيباً؟ قال: الطبيب أمرضني. قال: أفلا نأمر لك بعطائك؟ قال: لا حاجة لي به، حبسته عني في حياتي وتدفعه لي عند مماتي؟ قال: يكون لبناتك من بعدك. قال: أتخشى على بناتي الفاقة من بعدي؟ أمرتهن أن يقرأن سورة الواقعة كل ليلة فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من قرأ سورة الواقعة كل ليلة لم تصبه فاقة أبداً».

ولعل السر في أن قراءة هذه السورة الكريمة كل ليلة تنفي الفقر وتورث الغنى، هو أن المواظبة عليها بإخلاص تجلو البصيرة وتفتح عين القلب وتغمره بالثقة واليقين والتوحيد الكامل، وهو التوحيد الشهودي الذوقي - لا التوحيد النظري العلمي - وذلك لما فيها من الآيات الكثيرة المشيرة للتوحيد الدالة على تفرد الحق سبحانه وتعالى بالإيجاد والتأثير في كل شيء كقوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرَثُونَ (٦٣) أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ﴾ وكقوله: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ (٦٨) أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ﴾ ومتى استنار القلب، وحل فيه التوحيد الكامل، فعرف شهوداً وذوقاً أن الله تعالى هو الفاعل المختار، والمتصرف وحده في كل شيء، لا مانع لما أعطى، ولا معطي لما منع ﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ﴾ (فاطر: ٢) تحقق رجوعه إلى الله تعالى وصدق توكله عليه، وتم استناده إلى ركنه المتين، فصار من خواص عباد الله الذين لو أقسموا على الله لأبرههم، فلا يرد لهم دعوة، ولا يخيب لهم رجاء، ولا يحوجهم لأحد سواه «ومن وجد الله ما فقد شيئاً» فلا تنزل به مسغبة، ولا تصيبه فاقة أبداً، وإن أملت

به فاقة يوماً من الأيام تنفيذاً لقضاء **الله** تعالى المبرم وقدره المحتوم، فإنها تكون محفوفة باللفظ، مقرونة بالتيسير كأنها لم تكن ولم تحل بساحته؛ لأن غمتها تنجلي وكربتها تنكشف كأنها سحابة صيف أو إمامة طيف، فماء وجهه مصون، وعرضه وافر غير مكلوم. هذا ما ظهر لنا في معنى الحديث الشريف، ويحتمل أن يكون معناه أن **الله** تعالى قد جعل قراءة هذه السورة الكريمة كل ليلة سبباً من أسباب الغنى وزوال الفقر، ولا بعد في هذا ولا غرابة فيه بعد ما تقرر بالأدلة الساطعة والبراهين القاطعة أنه سبحانه وتعالى هو الفاعل المختار المستقل بإيجاد الأشياء كلها دون أن يكون للأسباب فيها أي شائبة من التأثير، فله أن يقيم من الأسباب ما شاء لما شاء من المسببات، وقد يجعل للشيء الواحد جملة أسباب توصل إليه بإذنه ومشيئته، فكما يجعل التجارة والزراعة مثلاً سبباً للحصول على الرزق، يجعل من أسباب ذلك أيضاً المواظبة على قراءة سورة الواقعة كل ليلة، وكما يجعل تعاطي الدواء الحسي سبباً للشفاء من الأمراض البدنية يجعل من أسبابه أيضاً الاستعاذة والرقية بأسمائه تعالى وكنماته التامة قراءة وكتابة. وهذا الذي ذكرناه كله يجري في نحو قوله **صلى الله عليه وسلم** : «من لزم الاستغفار جعل **الله** له من كل هم فرجاً، ومن كل ضيق مخرجاً، ورزقه من حيث لا يحتسب». وقوله للرجل الذي شكاً إليه إدبار الدنيا وتوليها عنه: «قل عند طلوع الفجر: سبحان **الله** وبحمده سبحانه **الله** العظيم، أستغفر **الله** مائة مرة، وقال: تأتيك الدنيا وهي صاغرة» فولى الرجل فمكث مدة ثم عاد وقال: يا رسول **الله** أقبلت عليّ الدنيا فما أدري أين أضعها. وكذلك ما ورد في صحيح مسلم عن عثمان أبي العاص الثقفي أنه شكاً لرسول **الله** **صلى الله عليه وسلم** وجعاً يجده في جسده منذ أسلم، فقال له

رسول الله ﷺ : «ضع يدك على الذي يألم من جسدك وقل: بسم الله ثلاثاً، وقل سبع مرات: أعوذ بالله وقدرته من شر ما أجد وأحاذر». والله أعلم.

بقي معنا أمران (الأول): هل الأفضل ما أشار به سيدنا عثمان رضي الله عنه من استدعاء الطبيب لابن مسعود لينظر علته ويصف له الدواء المناسب؟ أم الأفضل ما رآه ابن مسعود من الامتناع عن ذلك توكلًا على الله تعالى واستسلامًا لقضائه؟ (والجواب) أن ما أشار به عثمان رضي الله عنه هو الأفضل؛ لأنه من الأسباب التي كلفنا الله تعالى بها ونهانا عن التفريط في شيء منها مع القدرة عليها، وليس في فعل الأسباب ما ينافي التوكل على الله تعالى والاستسلام لحكمه وقضائه؛ بل حقيقة التوكل والاستسلام لا تتم إلا بمباشرة هذه الأسباب التي اعتبرها الله تعالى وعلق مسبباتها، كما أن الثقة بالطبيب والاستسلام لحكمه لا يتم إلا باتباع النظام الذي رسمه في تركيب الدواء وكيفية تعاطيه. وتحقيق هذه المسألة باختصار أن الله تعالى وإن كان هو الموجد المؤثر في كل شيء، لكنه قد جعل لكل كائن سببًا يترتب عليه ويقترن وجوده بوجوده، وقد أمرنا بمباشرة هذه الأسباب، وحثنا على المحافظة عليها في كثير من آيات كتابه وأحاديث نبيه ﷺ، فتركها مع القدرة عليها حرام لمخالفة أمره تعالى، كما أن الاعتماد عليها كفر لمنازعة ربوبيته. ولهذا يقول العارف ابن عطاء الله في كتابه المسمى بالتنوير في إسقاط التدبير: «والقول الفصل في ذلك أنه لا بد من الأسباب وجودًا، ولا بد من الغيبة عنها شهودًا، فأثبتها من حيث أثبتها الله تعالى مراعاة لحكمته، ولا تستند إليها لعلمك بأحدثه». وفي المواهب اللدنية للإمام

القسطلاني ما نصه: «إن التداوي لا ينافي التوكل؛ بل لا تتم حقيقة التوحيد إلا بمباشرة الأسباب التي يصنعها الله تعالى مقتضيات لمسيباتها قدرًا وشرعًا، وأن تعطيلها يقدح في نفس المتوكل كما يقدح في الأمر بها، والحكمة في خلق الشفاء عندها» اهـ. فلزم حينئذ الاعتذار عما صدر من ابن مسعود رضي الله عنه، إما بأنه في ذلك الوقت قد كان في حالة استغراق جعلت الكائنات كلها ومنها الوسائط والأسباب تتلاشى في نظره وتضمحل بالكلية، فهو إذا معذور يسلم له حاله ولا يقتدى به فيه، وإما بأنه رأى بعين بصيرته أن القضاء قد حم، وأن الأجل قد انتهى فلا فائدة في العلاج، ولا ثمرة للطبيب وذو النورين وإن كان قد رأى ذلك بنافذ بصيرته أيضًا، ولكنه أراد مجاملة صاحبه وإدخال السرور عليه؛ لأن استدعاء الطبيب دليل على أمل الصحة ورجاء الحياة، وهذا هو المطلوب من عائد المريض في كل وقت.

(الأمر الثاني): ليس في قول ابن مسعود لعثمان رضي الله عنه في شأن عطائه رضي الله عنهما: حبسته عني في حياتي وتدفعه لي عند مماتي ما يتخذه الخراصون تكأة لنسبة الجور والحيف لصهر رسول الله صلى الله عليه وسلم، وثالث الخلفاء الراشدين، وحاشا لله، وإنما هذا نوع من العتاب الذي يكون بين الأحباب. والمعهود في مثل عثمان رضي الله عنه أنه ما حبس عطاء ابن مسعود رضي الله عنه إلا لمبرر اقتضى ذلك عنده كأن غلب على ظنه عدم احتياجه إليه، أو رأى أهمية غيره من المصالح القومية فقدم الأهم على المهم كما هو الواجب والمطلوب والله أعلم.

ولنشرع في تفسير السورة الكريمة. قال تعالى: ﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ﴾ أي: إذا قامت القيامة، وإذا ظرف مضمن معنى الشرط وجوابه

المنادى، ويوم الميقات، ويوم الميعاد، ويوم المرصاد، ويوم الفلق، ويوم
 العرق، ويوم الافتقار، ويوم الانكدار، ويوم الانتشار، ويوم الانشقاق،
 ويوم الوقوف، ويوم الخروج، ويوم الخلود، ويوم التغابن، ويوم عبوس،
 ويوم معلوم، ويوم موعود، ويوم مشهود، ويوم لا ريب فيه، ويوم تبلى
 السرائر، ويوم لا تجزي نفس عن نفس شيئاً، ويوم تشخص فيه الأبصار،
 ويوم لا يغني مولى عن مولى شيئاً، ويوم لا تملك نفس لنفس شيئاً، ويوم
 يدعون إلى نار جهنم دعاً، ويوم يسحبون في النار على وجوههم، ويوم
 تقلب وجوههم في النار، ويوم لا يجزي والد عن ولده، ويوم يفر المرء
 من أخيه وأمه وأبيه، ويوم لا ينطقون ولا يؤذن لهم فيعتذرون، ويوم لا
 مرد له من **الله**، ويوم هم بارزون، ويوم هم على النار يفتنون، ويوم لا
 ينفع مال ولا بنون، ويوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ولهم اللعنة ولهم سوء
 الدار، ويوم ترد فيه المعاذر، وتبلى السرائر، وتظهر الضمائر، وتكشف
 الأستار، وتخشع الأبصار، وتسكن الأصوات، ويقل الالتفات، وتبرز
 الخفيات، وتظهر الخطيئات، ويوم يساق العباد ومعهم الأشهاد، ويوم
 يشيب الصغير ويسكر الكبير. فهذه مائة اسم إلا اثنين وكلها مشعرة
 بفداحة أمرها وشدة خطرها، نسأل **الله** السلامة والعافية. ثم أكد
 سبحانه وتعالى تحقيق وقوع الواقعة بقوله: ﴿لَيْسَ لَوْقَعَتَهَا كَاذِبَةٌ﴾ لا
 يكون ولا يوجد حين تقع الواقعة وتقوم القيامة نفس كاذبة في أمر
 الساعة، بأن تنفي وقوعها كما نفته في الدنيا، وذلك لأنها ثبتت وتحققت
 فعلاً فلا يمكن لنفس كائنة ما كانت أن تقول بعدم وقوعها. وقيل معنى
 ﴿لَيْسَ لَوْقَعَتَهَا كَاذِبَةٌ﴾ ألا يوجد حين تقوم القيامة بالفعل نفس تكذب

على صاحبها فتهون عليه أمرها وتقلل شأنها، وتحدثه باحتمال أهوالها وشدائدها، مأخوذ من قولهم: كذبتة نفسه؛ إذ أمنتته الأمانى وأوهمته القدرة على تحمل الخطوب الجسام ﴿خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ﴾ أي: هي خافضة لأقوام رافعة لآخرين، كما هو الشأن في الحوادث العظيمة والانقلابات الخطيرة يعني أنها تخفض الكافرين المتكبرين، وترفع المؤمنين المتواضعين، وهذا معنى قول سيدنا عمر رضي الله عنه: خففت أعداء الله إلى النار، ورفعت أوليائه إلى الجنة. والخافض الرافع في الحقيقة هو الله تعالى، وإنما نسب الخفض والرفع هنا ليوم القيامة مجازاً على عادة العرب في نسبة الأفعال إلى الأزمنة والأمكنة، والواقع أن خفض الكافرين ورفع المؤمنين مقضي أزلاً وثابت في الحياة الدنيا أيضاً، كما أفاده قوله عز وجل: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ (الجاثية: ٢١)، وإنما الذي يكون يوم القيامة هو إظهار ذلك للملأ، وإعلانه على رءوس الأشهاد ﴿إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًا﴾ أي: إذا حركت وزلزلت زلزلة شديدة بحيث يتهدم ويتكسر ما فوقها من الجبال والأبنية، ويخرج الله ما في جوفها من الأموات، كما قال عز شأنه: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا (١) وَأُخْرِجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا (٢) وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا (٣) يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا (٤) بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا (٥) يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَالُهُمْ (٦) فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٧) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ (سورة الزلزلة). قيل: إن هذه الرجة والزلزلة إنما هي من صوت إسرافيل عليه الصلاة والسلام. وبعد أن ترج الأرض هذه الرجة القوية حتى تزول جبالها وآكامها تصير

قاعاً صفصفاً لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً، ثم يمدها **الله** تعالى كما يمد
الأديم، والأديم الجلد أي: يبسطها ويسويها ويوسعها لوقوف الخلائق
عليها للحساب حتى لا يكون لأحد من البشر عليها إلا موضع قدم
لكثرتهم ﴿ **وَبُسَّتِ** ﴾ أي: فتت ﴿ **الْجِبَالُ بَسًّا** ﴾ تفتيتاً قوياً
﴿ **فَكَانَتْ** ﴾ فصارت ﴿ **هَبَاءً مُنْبَثًّا** ﴾ غباراً منتشراً أي: كالغبار المنتشر
المتفرق وذلك بعد صيرورتها كالعهن المنفوش، ثم صيرورتها هباءً
منثوراً. وكل هذه المراتب مذكورة في القرآن، وقال الفخر الرازي: إن **الله**
تعالى ذكر أحوال الجبال بوجوه مختلفة، ويمكن الجمع بينها بأن نقول أول
أحوالها الاندكاك وهو قوله تعالى: ﴿ **وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا**
دَكَّةً وَاحِدَةً ﴾ (الحاقة: ١٤). (والحالة الثانية): أن تصير كالعهن المنفوش
وهو قوله تعالى: ﴿ **وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ المنفوشِ** ﴾. و(الحالة الثالثة):
أن تصير كالهباء وهو قوله: ﴿ **وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا** ﴾ ﴿ **فَكَانَتْ هَبَاءً**
مُنْبَثًّا ﴾. (الحالة الرابعة): أن تنسف؛ لأنها مع أحوالها المتقدمة قارة في
مواضعها فترسل عليها الرياح فتنسفها عن وجه الأرض فتطير في الهواء،
وهو قوله تعالى: ﴿ **وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا**
طه: ١٠٥ ﴾ (الحالة الخامسة): أن تصير هباء، أي: لا شيء كما يرى السراب
من بعد. والمراد بالهباء الأخير غير الهباء الذي هو الحالة الثالثة، فإن ذلك
هو الغبار المنتشر، وهذا عبارة عن السراب الذي يرى من بعد كأنه شيء
وليس بشيء. ﴿ **وَكُنْتُمْ** ﴾ أي: صرتم حين تقوم القيامة ويقع ما ذكر،
والخطاب لهذه الأمة المحمدية والمقصود الخلائق جميعاً ﴿ **أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً** ﴾
أي: أصنافاً وفاقاً ثلاثة وهم السابقون وأهل اليمين وكلاهما في الجنة،